الفصل الحادى عشر

إن المؤرخين الباحثين فى تاريخ الحبشان لفى خلاف شديد بشأن أصلهم ، وموطنهم الأول . ففريق يرى أنهم ساميون نشئوا فى شبه جزيرة العرب . ثم هاجروا إلى الحبشة عن طريق باب المندب . ويدللون على رأيهم هذا ، ويتعصبون له . وفريق يرى أنهم حاميون سلكوا الطريق نفسه آتين من وراء شبه الجزيرة ، وأقاموا فيها ، أى فى الجزيرة ، ما شاء الله أن يقيموا : وعمروا بعض ربوعها وشيدوا فيها مدنا عظيمة ، ترامت أطرافها حتى أصبحت مدنا فى كل مدينة[1] .

ولا يعوز هذا الفريق الدليل على ما يزعمون !

ولكل من الفريقين بعض الحق ، ولرأيه نصيب من الصواب ، فإنه بعد الفحص عن ملامحهم ، ولغاتهم ، وخلائقهم ، وصفاتهم ، ومعتقداتهم ، وأساطيرهم ، وبحث المستندات التاريخية القليلة[2] التى عثر عليها المنقبون فى بلادهم ، وضح أنهم من أصل حامى[3] ، غمرتهم موجات سامية[4] عدة آتية من وراء البحر الأحمر ، فتأثروا بها فى الدم ، واللغة والعادات ، والتقاليد ، أيما تأثر ، حتى أصبحوا ، فى رأى

---

(١) هذه إشارة إلى ما بنته عاد من مدن وقلاع وحصون ، سارت بذكرها الركبان ، ونوه بها القرآن : لأن بعض المؤرخين يرى أن قوم عاد من نسل حام .

(٢) لم يعثر فى الحبشة إلا على آثار قليلة ، أهميتها التاريخية ضئيلة .

(٣) يرى سليجمان ، فى كتابه أجناس إفريقية ، أن سكان الحبشة خليط من الحاميين والزنوج ونسبة الحاميين ٨٠ ٪ ، وأن هذا المزيج مخفف بعنصر سامى ، يميل كثير من العلماء إلى المبالغة فى مقداره ، لعظم أثره فى ثقافة السكان .

(٤) لا تزال هذه الموجات السامية تحدث من غير توقف . « ولا أدل على ذلك من هجرة اليمنيين والحضارة المستمرة إلى الحبشة ، واستقرارهم فى أنحائها المختلفة وبخاصة فى المدن ، حيث يشتغلون بالتجارة . وعددهم آخذ فى الزيادة . ولقد حدثت هجرات جماعات كبيرة ، كما حدث فى سنة ١٨٦٩ م . ففى هذه السنة وصل نحو ٨٠٠ نفس من قبيلة الرشايدة من الجهات الواقعة بقرب من جدة ، وحلوا فى الساحل الشمالى من ارتريا » انتهى : كامل .

فريق من العلماء (وهم جمهرة الفريق الأول) ساميين أكثر منهم حاميين :

ولم يتعفف الحبشان فى كل العصور عن الاختلاط بسكان البلاد الأوائل (الشنكلا) ، فتسروا بناتهم ، اللائى أثرن فى ذراريهم أثراً نلمسه فى ألوانهم السوداء ، وملامحهم الشنكلاوية ، وشعورهم الصوفية .

ويزعم بعض المؤرخين أن من القبائل الحبشية من يشبهون سكان مصر فى عصر ما قبل الأسرات : وأن هذه القبائل كانت تسكن الحبشة منذ القرن الخمسين قبل الميلاد . ولكن هؤلاء المؤرخين ، لا يعلمون ،علم اليقين متى وفدت هذه القبائل على الحبشة أول مرة ، ولا من أين جاءوها .

ويحاول المؤرخون الحبشان عبثاً تبديد الظلام الدامس ، الذى يخيم على تاريخ بلادهم ، فى عصوره الأولى .

على أنه من الحقائق الثابتة ، لدى المؤرخين الغربيين وجود علاقة وثيقة بين مصر الفرعونية ، وبعض أقطار الحبشة الشمالية ، أو أثيوبيا . فقد جاء المصريون إلى تلك الأصقاع البعيدة ، وتسلطوا عليها ، وكشفوا فيها الذهب والنحاس ، وساقوا إليها زمراً من الأسرى ، والأرقاء لاستخراجهما . . . . . وعاد إلى مصر بعض أولئك الأسرى وتخلف كثير منهم ، واتخذوا الحبشة وطناً . ولا تزال ذريتهم مقيمين فيها ؛ ويسمون الجوارج[1] تعرفهم بملامحهم المهذبة ؛ التى تنم عن أصل أوروبى ؛ أو أسيوى غير سامى . وباختلاف ألوانهم عن ألوان القبائل ؛ التى تحيط بهم . وبينا نظام الرى والزراعة عندهم ؛ يختلف جد الاختلاف عن أى نظام آخر للرى والزراعة فى الحبشة ؛ لا يزال شديد الشبه بنظام الرى والزراعة عند قدماء المصريين .

---

(١) يسكن الجوارج فى الجهات الجبلية الوعرة ، الواقعة جنوب غربى أديس أبابا وهم مشهورون بالجد والنشاط . ومع ذلك فهم أقل ثراء من جيرانهم العروس ، إحدى قبائل الجلا ، وذلك لقلة خصوبة أرضهم الأمر الذى يدفع بهم إلى ابتغاء الرزق فى العاصمة . ولا تراهم فيها إلا حمالين ، أو حطابين ، أو سقائين ، أو مقتوين ، أو كادحين فى تعبيد الطرق وإصلاحها .

والذى يزيد تاريخ الحبشة غموضاً ، استعمال الاسمين ، الحبشة وأثيوبيا ليدلا على مدلول واحد . فالحبشان يطلقون كلمة أثيوبيا على بلادهم ، فى حين يطلق مؤرخو العرب لفظة الحبشة عليها ، ويطلقون لفظة أثيوبيا على شمال السودان الشرقى ، وبخاصة على جزيرة مروى ، الواقعة بين البحرين الأزرق والعطبرة . والتى كان ولا يزال يسكنها قبائل من الزنوج ، وأشباه الزنوج ، الذين كانت تسيطر عليهم مصر من قريب أو بعيد .

ومما لا ريب فيه أيضاً اتصال الحبشة ببلاد العرب ، اتصالا وثيقاً . وإن وجود النقوش الحميرية فى بعض جهات الحبشة ، ليدل دلالة قاطعة ، على ما كان بين هذه الجهات ، وبلاد سبأ أو حمير من علاقة متينة ، حملت بعض المؤرخين على الاعتقاد بأنهما كانا جزءين من إمبراطورية عظيمة واحدة [1] .

وفى خزائن الحبشة قائمة بأسماء الملوك الذين تبوءوا عرش الحبشة ، من عهد من يسمونه آرام أحد ولد آدم ، وهو الذى يزعمون أنه حكم الحبشة ستين سنة ونيفاً . (٤٥٣٠ ق م — ٤٤٧٠ ق م) إلى عام ١٧٧٩ ق م . وتحوى أسماء ٣١٢ ملكا . وهى أشبه بالقائمة التى كتبها مانثون المصرى غير أن هذه القائمة الحبشية لا يعتد المؤرخون بها ، ولا يثقون بصحتها ، لما وجدوه فيها من خرافات ، وخلط ، وتكرار فى أسماء الملوك . فوق أن الحقائق التاريخية — إن جاز لنا أن نسميها حقائق — التى تذكرها ضئيلة ، مبهمة غير متصلة الحلقات فلا تصلح والحال هذه للاعتماد عليها فى كتابة تاريخ مفصل واضح .

وأول حادث فى تاريخ الحبشة ، يستحق الذكر ، هو سفر الملكة مكدة أو بلقيس إلى سليمان بن داود .

وقد فصلنا فى الكلام عن الفلاشة ما كان من أمر سفر بلقيس أو مكدة

---

(١) وهذا هو السبب فى الخلاف الشديد فى قصة بلقيس ملكة سبأ فالحبشان يزعمون أنها حبشية وأنها أم ملوكهم بيناً يزعم العرب أنها يمنية سبأية وقد فصلنا ذلك .

إلى أوروشليم ، وزواجها من سليمان ، وسفرها إلى مقر ملكها ، وسفر ابنها منليك إلى دارة ملك أبيه سليمان ، ورجوعه مع أبناء إسرائيل الأبكار إلى الحبشة [١] .....

ولقد تعرضت الحبشة فى ذلك العهد لغزوة سامية كبيرة تأثرت بها أيما تأثر . وربما كانت هذه الغزوة منشأ قصة قدوم بنى إسرائيل إلى الحبشة .

ولقد تكررت غزوات الساميين ، وهجراتهم إلى الحبشة ، فتأثرت بهم ، كما قدمنا ، فى الدم ، والدين ، والعادات .

ومرت على الحبشة بعد ذلك دهور ، لا يعرف من أخبار أهلها ، إلا نذراً قليلا وكانت فى أثنائها متصلة بمصر اتصالا نلمحه من نقوش ، وجدت على لوحة من المرمر كشفت فى إحدى موانى البحر الأحمر ، فى القرن السادس ، خلاصتها أن بطليموس الثالث ، عاهل مصر (٢٤٦ ق م — ٢٢١ ق م) فتح بلادا واسعة فى آسيا ، مستعينا بثلة من الفيلة ، كان قد اصطادها بنفسه من بعض أنحاء الحبشة (أثيوبيا) ، ودربها بعد ذلك على القتال فى مصر .

يلى هذا ظهور دولة أكسوم فى القرن الثانى الميلادى ، فى شمال الحبشة . . . ...

---

(١) ومن غريب ما يروى عن منليك الأول ، وهو أقرب إلى الخرافة منه إلى الحقيقة ، أن منليك قبل أن يغادر أورشليم إلى الحبشة ، سرق تابوت العهد ، وحمله معه . وحينما كشف الإسرائيليون أمر السرقة ، أرسلوا الخيل وراء منليك لرد التابوت . فلما أوشكت أن تلحق به ، انشقت الأرض أمام منليك وصحبه ، فنزلوا فى جوفها ، ونفذوا إلى الحبشة ، سالكين سرداباً ، تحت البحر الأحمر . ولكنهم لما وصلوا إلى فوهة السرداب ، من ناحية أرض الحبشة ، انزلقت صخرة كبيرة من مكانها ، وهوت إلى فوهة السرداب ، فسدتها بعد أن سقط التابوت من حامليه الذين نجوا بأنفسهم ، فدفنته الصخرة . وحاول منليك وصحبه إخراج التابوت ، فلم يفلحوا ، ورجع منليك إلى أمه غضبان أسفاً .

ولا يزال كثير من الحبشان يعتقدون أن التابوت ما برح مدفوناً تحت الصخرة التى غطت فوهة السرداب بعد خروج منليك وصحبه .

(٢) يرى بعض المؤرخين أن دولة أكسيوم قامت على أنقاض دولة بنت ، أرض آلهة مصر القديمة المقدسة ، كما قامت الحبشة الحديثة على أنقاضها . وذلك الفريق من المؤرخين يخالف من يرى أن بنت فى بلاد العرب أو فى الصومال الجنوبى .

ولقد ضربت هذه الدولة بسهم فى المدنية ، و بلغت شأواً عظيما من القوة والمنعة .

ولقد قام الملك إيزانس (Aeizanes 033 A. D.) أحد ملوكها بفتوحات، وسع بها رقعة ملكه ، و فى عهده اعتنق الحبشان الديانة المسيحية . وفى عهده أيضاً ، غزت جيوش أكسوم اليمن ، وأخضعتها . ولا نعرف على وجه التحقيق كيف تم الغزو ، ولا كيف أفلتت اليمن من قبضة أكسوم أول مرة .

وفى سنة ٥٢٠ م استصرخ ملك أكسوم نصارى نجران ، وكان ذو نواس ملك اليمن قد قتل ملكهم ، وسراة قومهم وعذبهم عذاباً لم يعذبه أحد ، فأرسل ملك أكسوم جيشاً جراراً ، تحت قيادة أرباط ، يؤازره أبرهة الأشرم ، فهزم ذو نواس ، واقتحم البحر بجواده مفضلا الغرق على أسر السودان .

وملكت الحبشة اليمن، وكان ما كان من أمر قتل أبرهة أرباط، وبنائه الكنيسة بصنعاء لصرف الناس إليها ، وصدهم عن حج البيت المحرم ، وتغيظ عرب اليمن من ذلك و إحداثهم فيها ، وغضب أبرهة ، ومسيره بجيشه وفيله لهدم الكعبة ، و إصابة جيشه بوباء فاتك[1]، وسيل عرم، وهلاك خلق كثير منه، ورجوع أشلائه مدحورين ولم يلبث أن طرد الحبشان من اليمن ، على يد سيف بن ذى يزن بمساعدة الفرس سنة ٦٠١ م[2] .

. . . . ولقد اتصلت الحبشة بالدولة الرومانية فى عهد الامبراطور جستنيان . وكان ذلك فى أثناء سيطرة الحبشة على اليمن . وإن هذا الاتصال ، وهذه السيطرة دعت الحبشان إلى ركوب البحر والصبر على أخطاره ، والاشتغال بالتجارة مع الأمم المطلة على البحر الأحمر والمحيط الهندى ، وامتداد نفوذهم إلى بلاد الهند .

يتلو هذا العصر عصر اضطراب وانحطاط وخمول ، يخيم فى أثنائه ظلام دامس على شئون الحبشان المختلفة ، ذهب بتفاصيل أحوالهم .

---

(١) ، (٢) تجد ذلك مفصلا فى كتب تاريخ العرب .

وقد انجاب هذا الظلام فى القرن العاشر، فلمحنا الفلاشة الذين طوردوا من أوطانهم من قبل إلى جبال سمين ، يهبطون من معاملهم، ويهزمون الحبشان ، و يقتلون أمراءهم و يغتصبون الحكم ، كما قدمنا .

ودالت دولة الفلاشة بعد ستين سنة ونيف ، على يد مغتصب من مقاطعة لستا ، ولا يعنينا ممن تملك بعده من عترته إلا الملك لاليبالا ، فقد كان ملكاهاماً ، ومن آثاره الكنائس المسماة باسمه ، المنحوتة فى الصخر الأصم . و إنه يؤثر عنه محاولته تحويل النيل الأزرق عن مجراه الأصلى ، ليصرفه عن النيل كيداً فى المصريين .

وفى عهد الدولة اللستاوية كان الملوك الشرعيون من آل سليمان يحكمون فى الجنوب ومقرهم مقاطعة شاوة .

ومن المستغرب ألا تحدث حروب أهلية بين البيتين المالكين ، فلم يحاول البيت الشرعى استرجاع ملكه المسلوب ولم يحاول البيت الغاصب ضم المقاطعات التى لم تنضو تحت لوائه .

واستمر هذا الحال حتى سنة ١٢٦٠ م ، وفى أثنائها تنازل ناكتيولاب اللستى ليا كونو أملاك ، ملك شاوة ، وحفيد سليمان عن كل حق فى ملك الحبشة ، فأصبح أملاك إمبراطوراً للحبشة كلها . ولقد تم ذلك ، كما يزعم الحبشان من غير قتال ، على يد قديس الحبشة المشهور تكلاهيمانوت الذى أقنع الفريقين بقبول الشروط الآتية :

١ — أن يتنازل ناكتيولاب عن عرش الحبشة ليتولاه الملك الشرعى يا كونو أملاك .

٢ — أن يحتفظ ناكتيولاب بملك لستا ، إحدى ولايات الحبشة الشمالية ، له ولعترته من بعده ، وبحق الجلوس على الكرسى الذهبى ، واستعمال الطبول الفضية وهذان حقان لا يتمتع بهما إلا إمبراطور الحبشة ، وأن يعفى من كل جزية أو خراج .

٣ — أن يكون للكنيسة ثلث أرض الحبشة .

٤ — ألا يكون أبونا ، أو راعى الكنيسة الحبشية حبشياً .

وعلى الرغم من غرابة هـذه الشروط ، فإنها نفذت بأمانة و إخلاص ، وظلت نافذة نحو خمسة قرون .

و يميل المؤرخون إلى الرأى القائل،إن يا كونو أملاك تبوأ عرش أجداده بالطريقة المألوفة . وهى القتـال ، و إنه قهر خصمه ، و إنه أسفر بينهما القديس تكلا هيمانوت ، فنزلا على الشروط التى اقترحها حقناً للدماء .

ومهما تكن الظروف والملابسات ، التى استرجع فيها بيت سليمان ملكهم المسلوب وحقهم الشرعى ، فإن الحقيقة الثابتة أنهم استرجعوها، بعد أن فقدوها ، زمناً طو يلا. ولا يزالون يحتفظون بهما حتى الآن .

ولـكن الحبشان، ما كادوا يلمون شعثهم، و يوطدون ملـكهم حتى ألفوا أنفسهم مضطر ين إلى القتال ، وهم مولون ظهورهم نحو هضبتهم الوسطى.إذ أن انتشار الإسلام فى السهول الساحلية للبحر الأحمر والمحيط الهندى، مهد السبيل إلى قيام دول إسلامية فى تلك الجهات من إفر يقية تضافرت على غزو الحبشة .

ولقد خاض خلفاء أملاك حرو باً طاحنة مع المسلمين ، سالت فيها الدماء أنهاراً ، وطرد فى أثنائهـا بعضهم شر طردة ، وأشهر أولئـك الملوك ، الملك أمداسيون الأول الذى أبلى فى هذه الحروب ، بلاء حسناً (١٣١٢ م — ١٣٤٢) ، وظهرت شجاعته فى وقائع عدة ، وخر صريعاً آخر الأمر فى ميدان القتال، بعد أن دفع الغزاة عن بلاده .

وتمتعت الحبشة بعد ذلك ، بفترة من الهدوء النسبى ، دامت إلى آخر القرن الخامس عشر . ولـكن ما كاد يبزغ فجر القرن السادس عشر، حتى انهالت على الحبشة المصائب . واصطلحت عليها الـكوارث . فالعثمانيون الذين كانوا قد فتحوا مصر [1] واليمن . رأوا أن يجعلوا من البحر الأحمر بحيرة عثمانية . فاستولوا على زيلع وأمدوا سكانها المسلمين بالسلاح والذخيرة . ومعدات الحرب الأخرى ، و بجنود من مختلف

(١) سنة ١٥١٦

أجزاء الإمبراطورية العثمانية من عرب وانكشارية ، وسلطهم على الحبشان وبذا بدأت الحروب الشعواء ، التى ظلت محتدمة بين الحبشان والمسلمين فترة طويلة من الزمن ، قتل فيها من سكان الحبشة خلقاً كثيراً ؛ وقد فصلناها فى غير هذا المكان من هذا الكتاب .

. . . . . .

وما كادت تهدأ عاصفة المسلمين حتى انقضت على الحبشان جموع الجلا ، انقضاض الذئاب على النعاج . وساروا فى الحبشة من نصر إلى نصر ، يحتلون ولاية إثر ولاية ، ويقتلون الناس ويدمرون القرى ، ويحرقون الكنائس ، بعد نهب ما فيها ، من فضة وذهب ، وذخائر أغلى عند الحبشان ، وأعز عليهم من الفضة والذهب .

وفى أثناء هذا الهول ظهرت شجاعة الملك داود (١٥٠٨م — ١٥٤٠م) الذى صمد صمود الصخر ، لهذا السيل الجراف . ولم يتسرب اليأس إلى قلبه الشجاع ، برغم ما لقى من الهزائم . وظل ينفخ فى قومه روح المقاومة ، ولم يفقد الأمل فى النصر آخر الأمر ، على الرغم من قتل ابن له ، وأسر آخر ، وتشتيت شمل جيشه ، ومطاردته من مخبأ إلى مخبأ ، ومن أجمة إلى أجمة ، كما تطارد الفريسة .

ظل هذا الملك الشجاع على هذه الحال التعسة ، حتى وافاه الأجل . ولكن نفسه النبيلة بعثت فى الحبشان روح المقاومة والتضحية ؛ فتغلبوا آخر الأمر ؛ على الغزاة الفاتحين.

. . . . . .

ولقد تعرضت الحبشة ، بعد ذلك ، إلى غزو من نوع آخر ، فانها ما كادت تحل مشكلة الجلا ، حتى داهمتها جيوش من نوع آخر ، جيوش البعثات الدينية ، وكان معظمهم من البرتغاليين ، حلفاء الأمس ، الذين لم يقنعوا بكثلكة بعض الحبشان ، ولكنهم حاولوا أن يخلطوا السياسة بالدين ، والسلطة الزمنية بالسلطة الدينية ، وقد أحرز البرتغاليون بعض النجاح فى بادئ الأمر ، ولكن سرعان ما تبين للحبشان

الخطر الذى أوشك يهدد كيانهم القومى، وطلبوا ملحين، من حكومتهم طرد المرسلين الأجانب ، فأمروا بمغادرة البلاد ، ومن رفض منهم ذلك قتل . وبذلك أوصدت أبواب هـذه الدولة العتيدة ، فى وجه فنون أوربة وعلومها ، وتعصبها الممقوت .

. . . . وظلت الحبشة ، بعد ذلك فى حرب عوان مع الصومال تارة ، ومع الجلا تارة أخرى . . . ولـكنها لم تستطع استرجاع سواحلها التى انتزعت منها وذلك لتخاذلها وانقسامها الداخلى .

وما وافت سنة ١٧٦٩ م حتى أصبح النجاشى أو ملك ملوك الحبشان كمثل خلفاء بنى العباس ، فى زمن اضمحلال دولتهم ، تجبى الحبشة جميعاً باسمه، ولا يصل إلى يديه شىء مما يجبى .

وفى سنة ١٨٠٠ تسلمت مقاليد الأمور أسرة جلوية على الرغم من وجود براطرة شرعيين من أسرة سليمان ، يولون و يعزلون . أو يقتلون كما يشاء لهم الغاصبون .

واستمرت هذه الحال السيئة حتى منتصف القرن التاسع عشر ، حين بدأت دول الغرب تقرع أبواب الحبشة ، وتلح فى قرعه وتدمن ، حتى فتحت لها على مصاريعها ، وبدأت تعقد المعاهدات بينها وبينهم ، بدأتها بريطانيا العظمى ، وقفت إثرها فرنسا . .

ولم تؤد تلك المعاهدات إلى تحسن الحال ، بل زادتها سوءاً ، على سوء ، مما دعا إلى ظهور رجل الساعة ، الإمبراطور توضروس أوكاسا ، ذلك الحبشى العظيم الذى آثرنا أن نكتب تاريخ حياته مفصلا ، لأننا رأينا فيه قصة رائعة ، وصورة حقة لحياة الحبشان فى عصره ، والعصور السابقة له ، واللاحقة به .

ولد تيودور، أوتوضروس فى سنة ١٨١٨م فى قارا، وهى مقاطعة صغيرة فى غرب أمهرة . وكان أبوه ، هايلو ولد جرجس رقيـق الحال ، خامل الذكر ، ولـكنه كريم العنصر ، ولاغرو فهو سبط لسليمان بن داود .

ومات أبوه وهو دون العاشرة ، ولم يترك له إلا قليلا من المـال ، اغتصبه منه

أقاربه . فاضطرت أمه إلى كسب قوتها ، وقوت اليتيم كاسا ، ببيع زهر الكوسو ، وهو نبات ينمو فى قمم جبال الحبشة ، يستعمله الحبشان دواء لمرض الدودة الوحيدة المنتشرة بينهم انتشاراً سريعاً . ولم تلبث أن أرسلت الأم وحيدها ، وهى كارهة إلى دير غربى جندار .

ولم يطل مكث اليتيم فى الدير ، فقد هاجمه بعض الثوار . وحرقوا أكواخه ، وقتلوا معظم الفتيان اللاجئين . ونجا الفتى كاسا بأعجوبة ، إذ لاذ بالفرار تحت جنح الظلام والتجأ إلى بيت عمه[1] . وكان عمه من زعماء الحبشان الأقوياء . وكان بيته مباءة العصاة ، والفارين من وجه العدالة ، والناقمين على الرءوس ، والمترصدين للتجار وقطاع الطرق . فكان يلذ للفتى كاسا الاستماع للقصص التى كانوا يقصونها عن أعمالهم الجريئة . وقد صحبهم فى بعض مغامراتهم . وكانت نفسه عصامية ، فسودته فيهم ، وعلمته الصبر والشجاعة والكر والإقدام . وأكسبته محبة رئيسه ، واحترام جنوده وأتباعه .

ولكن شاء القدر القاهر ، والجد العاثر ، أن يموت عمه ، وأن يحرم عطفه وحدبه .

وأعقب عمه ولدين ، خلفاه فى الحكم ، لم يلبث أن دب دبيب الخلاف بينهما فتنازعا ، ففشلا ، فذهبت ريحهما ، وتفرق أنصارهما . وكان رأس داموت وجوچام واقفاً لهما بالمرصاد ، فانتهز فرصة ضعفهما وغزا أرضهما ، وداست سنابك خيله أشلاء رجالهما .

وفر كاسا بعد أن اشترك فى الحرب ، وأبلى فيها بلاء حسنا ، وقاتل قتال الأبطال المغاوير ، وتبعه الأعداء ، ابتغاء القبض عليه ، والتنكيل به فلجأ إلى كوخ فلاح ، فأجاره . وأحسن مثواه ، وآواه إلى أن انقطع عنه الطلب .

وحفظ كاسا لذلك الفلاح صنيعه ، وجزاه أحسن الجزاء . فقد زعموا أن كاسا

---

(١) كان حاكماً لدنبعة وقارا وتشلجا ، الواقعة بين بحيرة تانا وحدود الحبشة الغربية .

حين بسم له الحظ ، وحال حاله ، وأصبح قائداً فى جيش الملكة وزيرومنن ، أرسل إلى بلد الفلاح ، على رأس كتيبة من الجنود ليخضع أهلها ، وكانوا قد شقوا عصا الطاعة فما كاد يصل هو وجيشه أطراف البلد ، و يسمع الثوار باقترابه ، حتى شملهم الخوف ، وتملكهم الفزع ، لما عرف عنه من قسوة وجبروت ، وأسلموا أمرهم إليه . ففرض على كل ثائر أن يضيف عدداً من جنوده فى بيته ، يقدم لهم ما يشاءون من طعام ، إرهاقا لهم و إمعانا فى إذلالهم . وأرسل ثلة من الجنود إلى الفلاح جار كاسا ، فأبى واستكبر ، ورفض قبولهم ، فقبض عليه ، وجيء به إلى كاسا مكبلا بالحديد ، فلما رآه عرفه . وقام له فحل وثاقه ، وأكرم مثواه ، وأجزل له العطاء[1] ، ونصبه شموماً على بلده .

نرجع إلى قصة كاسا الذى هام على وجهه ، بعد مغادرته بيت الفلاح . وأخذ يجوب التلال والأودية حتى التقى بعصابة من اللصوص ، فانخرط فى سلكهم . ولم يلبث طويلا حتى أصبح زعيمهم الذى لا يعصى له أمر . وكان شديداً على أتباعه ؛ صارما فى معاملتهم . فملوا عشرته ؛ وود فريق منهم لو يتخلصون منه ؛ فتآمروا على قتله . ولكن كاسا علم بما دبروا ؛ فأفسد عليهم تدبيرهم ؛ ونكل بهم . ولم يمض طويل زمن على هذا الحادث ، حتى انضم كاسا وأتباعه المخلصون إلى عصابة أخرى ، فأصبحت العصابتان ذعر التجار المسلمين ، الذين كانوا يترددون بين وشنى فى الحبشة والمتمة فى السودان .

وسئم كاسا حياة الشطارة واللصوصية ، فترك رفاقه ورجع إلى مسقط رأسه ، وخلد إلى حياة الدعة والشرف .

بيد أن شهرته المستطيرة ، وصيته الذائع ، جعل أفئدة من الناس تهوى إليه . وما أن كثر أتباعه ، وأحس بالقوة حتى رفع علم الجهاد لرفع الظلم السائد وقتذاك .

وكانت وزيرو منن ملكة على جميع الأقطار الحبشية ، غربى نهر تكازا فنمى

---

(١) وهبه عشرين ريالا ، وثمانية ثيران ، وثمان بقرات ، وثمانية أعبد وثمان جوارى .

إليها خبره ، فأوجست منه خيفة ، ووقر بغضه فى قلبها ، وأعدت لحربه جيشاً لجباً ، وأرسلته على جناح السرعة ، لإخماد ثورة ابن بائعة الكوسو والقبض عليه .

والتقى الجيشان ، واحتدم القتال ، وثبت كاسا وجنوده ، وانهزم جيش الملكة شر هزيمة .

فعمدت الملكة ، وكانت داهية ماكرة ، إلى الملق والدهان ، واستدعته إليها فى لين ورفق ، مستعينة بزخرف القول وزوره ، ولكن كاسا رأى الغدر بين طيات دعوتها فقابلها بالمطل والتسويف .

فلما خاب مسعى الملكة ، لجأت إلى الختل والخداع ، فزوجته حفيدتها ، وأوصتها باغتياله ، ولكن حفيدتها أحبت زوجها ، وأخلصت له ، فخاب لذلك تدبيرها .

وانتهز المسلمون فرصة الفوضى ، واضطراب الحال فى الحبشة ، فغزوا أطرافها الشمالية الشرقية ، فأرسلت الملكة كاسا على رأس جيش عظيم لطرد الغزاة ، فخانه الحظ ، ودارت الدائرة على جيشه ، وجرح هو جرحاً بليغاً ، فتحمل به وذهب إلى طبيب معروف ، فطلب منه الطبيب ، وكان محباً للمال ، بقرة ثمينة حلوباً ، وجرة كبيرة ملأى من الزبد ، فأرسل كاسا رسولا يطلب من الملكة أجر الطبيب الطماع ، فلم تذكر حسن بلائه ، بل ذكرت حقدها وحنقها عليه ؛ فأرسلت له فخذ بقرة ، ورسالة ، تسخر فيها منه ، ومما جاء فيها « إنك لاتستأهل بقرة كاملة فنرسلها إليك » . فتلقى كاسا هذه الإهانة صابراً ، كاظماً غيظه ، وما كادت تلتئم جراحه ، حتى أسرع إلى قارة حيث جمع أتباعه المخلصين ، وسار بهم نحو دنبعة وجندار ، فأرسلت الملكة جيشاً قوياً للقائه ، مزوداً بكامل العدد والعدة ، ولكن ينقصه القائد المحنك الجرىء . وتقابل الجيشان على مقربة من تشاكو . وهزم الملكيون ، وولوا الأدبار ، بعد أن قتل كاسا منهم خلقاً كثيراً ، واستولى على أكثر من ألف بندقية .

ووقع فى أسر كاسا أحد قواد الملكة ، وكان قد تعهد أمام مجلس الحرب الذى

عقد فى جندار للبحث فى أمر القضاء على كاسا وجنوده ، أن يأتى بابن بائعة الكوسو حياً أو ميتاً وكان قد انتهى خبر ذلك إلى كاسا . فأرسل فى طلبه . ولما مثل بين يديه ، قدم له كأساً مملوءة من شراب الكوسو ، وقال له « تقبل هذه الكأس » منى ، بدلا من ألطّف طعام عشائك ، لأن والدتى لا تبيع اليوم كوسو » .

وجمعت الملكة جيشاً عرمرماً ، وقادته بنفسها وهاجمت جيش كاسا ، بعزم وقوة وشجاعة نادرة ، فاكتسحت أمامها كل شىء ؛ ولكن قوادها كانوا دونها فى الحزم والشجاعة ؛ فلم يحسنوا قيادة فرقهم ؛ ولم يستفيدوا من كسبهم المعركة الأولى . وانتهت الموقعة بانتصار كاسا ، ووقعت الملكة المقدامة أسيرة فى يده .

وعقد صلح بين كاسا وحميه الرأس على ابن الملكة ؛ أهم شروطه أن يمنح كاسا لقب ديجاتش ؛ ويعين حاكما من قبل الملكة على المقاطعات التى أخضعها .

ولكن هذا الصلح لم يدم طويلا ؛ لأن الملكة لم ترع شروطه فخلعت كاسا من منصبه . فانطلقت الحرب الأهلية من عقالها ، وأمعن الناس فى السلب والنهب ، واختل الأمن ؛ وأصبح لسان حال الناس : أنج سعد فقد هلك سعيد .

وفى دنبعة وقعت موقعة ، استمات فيها الفريقان وظهرت فيها شجاعة الرأس على ، ولكن خانه المجال ، وعثر به الجد ، فهزم جيشه ، وفر هو على وجهه ، وظل ابن الملكة طريدا طول حياته .

أما اليتيم المشرد ، الذى طرد فى ربيع حياته شر طرد ، فإنه أصبح الآن قاب قوسين أو أدنى من أن يكون صاحب تاج ، ورب مملكة .

وبعد أن نصر كاسا هذا النصر المؤزر ؛ سار بجيشه إلى جوچام لقتال بير وجوشر وكان من ألد خصومه ؛ الذين تناولوا عرضه ؛ وسلقوه بألسنة حداد . ولم يدم القتال إلا ريثما يستقر رأى العدو على أية جهة يولى إليها دبره . وجاء بيرو كاسا يحمل حجراً ؛ مستغفراً لما فرط منه فى حقه .

فقال له كاسا ؛ وهو يحاوره : « ماذا يكون جزائى عندك لو أن الحظ بسم لك ؛ والنصر وافاك » .

فقال بيرو « الموت » .

وثارت ثائرة أتباع كاسا ؛ وهموا بقتله ؛ لولا أن حال كاسا بينه و بينهم . وكانت دهشتهم عظيمة حين غفر له ذنبه .

وجاءه خلصاؤه يجرون ؛ وأخبروه أن زوجة بيرو اعتصمت بقلعة منيعة ؛ وصدت عنها جيش كاسا .

فأرسل كاسا إليها رسولا يخيرها بين أمرين ، لا ثالث لهما : قتل زوجها أو تسليم القلعة .

فرضيت الزوجة الشجاعة بتسليم القلعة ، على ألا يرد عليها زوجها الجبان !

و بتسليم القلعة أصبحت معظم ولايات الحبشة تحت إمرة كاسا ، وأصبح ملك الحبشة كلها فى متناول يده .

وشنأه الرأس أوبى . وجمع جموعه ، ووقف له فى منحدر من منحدرات جبال سِمْيِنْ فسار إليه كاسا . ولما رأت جنود كاسا ، ما أعد لهم ديجاتش أوبى من قوة ؛ جبنوا ، وخافوا ، وأحجموا . فوقف كاسا هنيهة مشدوهاً ، لا يحير خطابا . ولكن سرعان ما ثاب إليه رشده . فتقدم إلى ربوة . واعتلاها . وخاطب جنوده بقوله :

« يا أبطال دنبعة وجندار ! أفبعد وقائعنا البيضاء ، وفتوحاتنا العظيمة ، تصدكم هذه الجبال الشم . و يثبط عزيمتكم بردها ، وتذهب بشجاعتكم تلك المدافع المحشوة بالبارود ؟ اتبعونى ، وسيصبح اسمى بعد اليوم تاوضروس لا كاسا » .

وما كاد كاسا ينتهى من خطبته ، حتى دبَّ الحماس فى نفوسهم ، وسرت الحمية فى عروقهم . وهجم كاسا أمامهم فاندفعوا وراءه . وقابلهم العدو بعزيمة صادقة . وقذائف محكمة التسديد ، و بحراب تحطم الصدور ، وتنتظم الأفئدة . وثار غبار كثيف لا يستبين

المحاربون منه إلا وميض القذائف ، و بريق الأسنة ، ولا يستمعون إلا قعقعة السيوف ، وجلجلة الحراب ، عند اصطدامها بالدروع ؛ ودوى المدافع ، وأنين الجرحى ، وصياح بعضهم فى وجوه بعض. وكانت هذه الأصوات جميعها إذا ما اصطدمت بصخور سِمْين، انكفأت راجعة وسمعت أصداؤها أقوى وأرهب .

كان هذا اليوم من أيام الحبشة البُـلق المشهورة ، احتدم فيه القتال ، واستبسل الفريقان حتى آذنت شمسه بالمغيب . وقد أظهر ديجـاتش أو بى من ضروب الشجاعة والحيل الحربية ، والبصر بأمور القتال ما كاد يتم معها النصر له . ولـكنه كان طاعناً فى السن فتسرب إلى أعصابه التعب فأنهكها . فعهد بالقيادة لبعض خلصائه وانتحى جانباً ليستريح قليلا . فكشف أمره بعض أتباع كاسا فباغتوه وأسروه . ولما علم جنوده بذلك ، دب فيهم الذعر ، وتملكهم الخوف وفر بعضهم ، واستسلم البعض الآخر ، وغنم كاسا أربعين ألف ريال ومدفعين وسبعة آلاف قذافة ، وآلافاً عدة من السيوف والحراب ، وغير ذلك من عدد الحرب .

و بعد فراغ كاسا من أمر أو بى ، سار إلى بلاد الجلا فهزمهم وشرد جموعهم ، فاعتصمت فلولهم بالجبال .

ولم يبق فى الحبشة بعد ذلك إلا مملكة شاوة . وعلى الرغم من أن جند شاوة كانوا يحتقرون ابن بائعة الـكوسو ، و يقللون من صفاته الحربية ، فإنهم لم يؤتوا من تقصير أو إهمال ، فقد أعدوا العدة للقائه .

وكان ملك شاوة مستبداً ظالما ضليلا ، عيهوراً ، ولـكن الشاويين تناسوا صفاته و إساءاته ، وذكروا أنه ملـكهم ورمز آمالهم ، وذكروا أباه سهلى سلاسى ، وفضله على شاوة [1] ، وذكروا ماضيهم المجيد ، وأيامهم البلق المشهورة فهجموا على جيش كاسا

---

(١) كان سهلى سلاس أصغر بنى أبيه واسن سجال حاكم شاوة، أعلن نفسه ملـكا لشاوة والجلا، وكان حكمه طويلا موفقاً . وقد اشتهر بعدله وكرم نفسه، وحسن وفادته للأوربيين . وفى عهده =

هجوما عنيفاً لم تصده بادىء الأمر مقاومة ، ولم يقف فى سبيله شىء ، وكادوا ينتصرون؛ ولكنهم ركبوا رءوسهم ،وجمحت بهم عواطفهم فلم يأبهوا لفنون الحرب، ولم يتذرعوا بالحكمة والروية فى حركاتهم ولم يعيروا لقوادهم المجربين آذاناً صاغية ، فزجوا بأنفسهم فى مآزق حرجة ، لم يحسنوا التخلص منها ، فاختل نظامهم ، ودارت الدائرة عليهم آخر الأمر .

ومات ملك شاوة قبل أن يعلم نبأ الهزيمة . وأذعنت شاوة ، وكان ولى عهدها منليك طفلا ، فأحسن كاسا مثواه ، وأرسله إلى أمبا مجدلا ، حيث كان يقيم ابنه .

وبذلك دانت الحبشة لكاسا من أقصاها إلى أقصاها .

وهكذا بدأ كاسا حياته يتيما معدماً ، ثم صار لصاً أفاقاً ، ثم أضحى قائداً مظفراً فملكا مصلحاً .

وأهم إصلاحاته ، وأبقاها أثراً الإصلاح الدينى : هاله أمر الشماسين والقسّيسين ، وكانت عدتهم ألف ألف أو يزيدون ؛ وكانوا جهلة مستهترين. يجبون باسم الكنيسة الضرائب ، ويملكون باسمها الضياع ، تحرث لهم ، وتزرع ، وتحصد ، وتحمل إليهم غلاتها : وهم قاعدون ، طاعمون ، كاسون ، لاهون ، قاصفون . وفى الشهوات إلى الأذقان منغمسون .

أمر بتعيين قسّيسين اثنين ، وثلاثة شماسين لكل كنيسة ، وكانوا من قبل مئين . وأعطاهم قطعة صغيرة من الأرض بجوار الكنيسة ليزرعوها بأنفسهم .

لم يرق رجال الدين هذا الإصلاح ، فثاروا ضده ، فأحنى رأسه أمام العاصفة حتى قرت . لم يلغ إصلاحه . ولكن أوقفه إلى حين ، ونفذه فى سنة ١٨٦٠ م .

والآن وقد تم لتواضروس ما كانت تصبو إليه نفسه من التسلط على جميع

= وفدت على الحبشة بعثة من قبل حاكم الهند البريطانية (سنة١٨٤١ م) وأخرى فرنسية (سنة١٨٤٣ م) وأبرم مع كلتيهما معاهدة صداقة وتوفى سنة ١٨٤٧ م

أقطار الحبشة ، تاق إلى الفتح ، ولا غرو فهذه شنشنة نعرفها من كل أمة اجتمعت بعد تفرق ، وشعرت بالقوة من بعد ضعف ، فأغرى ، سراياه بالإغارة على أطراف السودان المصرى ، فعاثوا فيها فساداً وقتلوا ونهبوا ، فأبلغ حكمدار السودان خبر ذلك إلى سعيد باشا فآثر بعد أن فكر فى الأمر أن يجنح للسلم ، فأرسل أولا الخطاب التالى للحكمدار .

فى ١٨ شوال سنة ١٢٧١ أمر عال بواسطة طلعت بك لحكمدار السودان منطوقه :

« قد عرض إلى الأعتاب السنية بمضمون مكتوب حضرتكم الذى ورد رقم ١٨ رمضان سنة ٧١ ونمرة ٥ و بعد أن علم لدى ولى النعم ما ذكرتموه مع ما اشتملت عليه المكاتبات التى وردت من جهة الجيش خطابا إلى الحكمدارية ، قد صدر النطق السامى أن الاستحضار الذى لحظتم لزومه من جهة الشرق هذا لم يقتض الآن حيثما أن سلطان الحبشة مظهر الآن حالة التودد ، وذكر فى مكتوبه أنه عزم على تقديم هدية ، ومكتوب لجلب المحبة والتودد و إنما اللازم الآن أن يجاوبوه بما هو اللائق لقبول ما بعث به من الهدية والمكافأة حسبما يجب فاقتضى ترقيمه ليكون معلوماً لديكم ما تعلقت به الإرادة السنية وتحروا العمل بمقتضاه .

حاشية : أما ما ذكرتموه عن حصول التعدى من الحبش على الجهة التى ذكرتم لزوم الاستحضار فيها وحصول تسحب بعض الأهالى والتعدى . إذا كان لم يزل فى حالة الوقوع فيلزم التبصر عن طلب إزالته فى سلك مكاتبة المودة التى تحررونها لأجل تمكين حصول ذلك من الطرفين وتنظرون فى كيفية التسحب واقعة بأى الأسباب ، ويسير إزالتها بكيفية حسنة لزم التحشية الإحاطة بذلك[1] » .

ثم عمد إلى إيفاد البطريرك كرلس الرابع إلى الحبشة ومكانته الدينية عند

(١) سامى باشا : تقويم النيل : المجلد الأول من الجزء الثالث من ص ١١٩ — ١٢٠

الحبشان مكانته ؛ ليسفر بينه و بين نجاشيها . وسافر البطريرك مزوداً بهدايا ثمينة له ، و بالخطاب التالى إلى حكومة السودان .

البطريرك كرلس الرابع

« جناب بطريرك الأقباط عرض لأعتابنا أن مطران بلاد الحبش المقيم فى طرفه هناك حاصل له عِيٌّ شديد ترتب عليه عطل أشغاله و يرغب التوجه بنفسه لإجراء ما يقتضى لضبط وملاحظة أشغال الملة ، والتمس الإذن له بالإجابة له فيما طلب .

ومن حيث أنه من الوجوب ملاحظتـه ، ومراعاته كما هو من مقتضيات شـيم مراحمنا ، وأن يصير له الاستعداد والمساعدة فى جميع الجهات التى يمر عليها فى الذهاب والإياب ، « أصدرنا أمرناهذا إليكم [1] .... »

ولم يشأ سعيد باشا أن يذكر فى هذه الرسالة الغرض الحقيق من سفر البطريرك إلى الحبشة ضنا بكرامة مصر وجيشها .

(١) سامى باشا : تقويم النيل : المجلد الأول من الجزء الثالث من ص ١٩٩ — ٢٠٠

وكان سعيد باشا قد أضمر فى نفسه أمراً وهو أن يعد العدة للحرب إذا خاب مسعى البطريرك . فعزم على السفر إلى السودان ليشرف بنفسه على الشئون الحربية ، وتظاهر بأن غرضه من رحلته إلى السودان الوقوف على حال أهله كما جاء فى إرادته التالية لفريق عساكره .

« فى ١١ ربيع الأول سنة ١٢٧٣ إرادة لإسماعيل باشا فريق العساكر السعيدية :

رغماً عن أن تقدم وعمران الملحقات السودانية الموجودة داخل دائرة حكومتنا من أهم مقاصدنا ورغباتنا فبقاؤها على الحالة الحاضرة إلى يومنا هذا، وعدم دخولها تحت النظام والإصلاح ، على الوجه المطلوب ، من بواعث الأسف ومن الأحوال التى لا يجوز دوامها ، فبناء عليه ، وحسب ما صممنا من مدة ، قد قررنا العزيمة على السير لرؤية الجهات المذكورة ، بعين الرأس ، والاطلاع على أحوالها ، وأطوارها ، ووضع وتأسيس النظامات اللازمة لعمرانها ولرفاهية تلك البلاد ، وأهاليها والرعايا ، وقد صحت نيتنا وعزيمتنا على السفر ، لما رأيناه من موافقة الموسم . . . . . وفى الوقت نفسه ، أرسل لحكمدار السودان الأمر التالى الذى يكشف عن دخيلة نفسه :

فى ١٣ ربيع الأول سنة ١٢٧٣ أمر عال إلى حكمدار السودان منطوقه :

اعلموا أن إرادتنا ، اقتضت تحريك ركابنا ، من جهة مصر المحروسة ، بقصد الحضور إلى جهة السودان ؛ وبعد خمسة عشر يوما تمضى من تاريخ أمرنا هذا ، يكون القيام من هذا الطرف ، فيلزم بوصول أمرنا ليدكم ، حالا وسريعاً تجمعوا كافة العساكر الجهادية ، الموجودين فى جهة السودان ، ليكونوا حاضرين جميعاً بآلاتهم فى الخرطوم ؛ كذلك تجمعوا فيها كافة المدافع الموجودة ، المهيأة المطقمة ، وتبذلوا غاية المجهود فى تجهيز واستحضار سائر ما يلزم من المأكولات ، وخلافه ، بحيث أنه عند حضورنا لذاك الطرف بمعيتنا يرى كل شىء فى غاية الاستحضار والتجهيز ، ولا تبدو مشقة بسبب قلت (قلة) وجود اللوازمات ، والحذر كل الحذر من العمل بخلاف

ذلك ، أو التقصير فيه ، لئلا يكون هذا سبباً لهلاككم بلا محالة ، عجلوا بنهاية ذلك ، حسب المطلوب كما اقتضته إرادتنا[١]

وكان استقبال البطريرك حين بلغ أرض الحبشة عظيما ، والترحيب بمقدمه بالغاً.

ولما خلا البطريرك إلى النجاشي ، فاتحه فى الأمر ، واستطاع بمحكم تدبيره ، أن تقنعه بالتنكيب عن سياسة العدوان ؛ و يأمر سراياه وجنوده بالكف عن اختراق الحدود للسلب والنهب ، ثم حدثه فى أمر المبشرين الغربيين ، الذين يغرون فقراء الحبشان على اعتناق مذاهب أخرى ، غير مذهبهم، فرأى النجاشي رأيه ، ووعده بأن ينظر فى أمرهم .

ولم يرق لبعض المغرضين من الحبشان ، ودعاة السوء من الأجانب ، صفاء الجو بين الحبشـــة ومصر ، فأوغروا صدر النجاشي بما حاكوه حول الأغراض الخفية التى جاء البطريرك من أجلها . فزعموا أن البطريرك منافق ، لأنه يمالىء المسلمين على المسيحيين ، وأنه جاء لتثبيط عزم النجاشي فى إعداده العدة لغزو السودان فى الوقت الذى يعد فيه سعيد باشا ، والى مصر ، جيشاً لجبا لغزو الحبشة ؛ وأن من الهدايا التى جاء بها من مصر كساء مسموما ، إذا ارتداه النجاشي ، سرى السم فى جسمه ، فمات لساعته .

وجاءت الأنباء من الســودان بأن سعيد باشا قد قدم الســودان ، وأن جنوده تفد على الخرطوم ، من كل صوب . وأن عدد الحرب تصل إليهـا من غير وقف ، ولا انقطاع . وذكر النجاشي أن البطريرك نصح له فى سياق أحاديثه معه بمعاملة المسلمين الحبشان بالعدل والإحسان ، ليعامل سعيد باشا قبط مصر ، ومسيحى السودان بمثل معاملته للمسلمين ، فخامره الشـك . وقويت عنده عوامل الريبة . فأوجس من البطريرك خيفة . وأمر بالقبض عليه ومن معه ، وإيداعهم حظيرة محصنة بالأشواك . وأقام على بابها حرساً شديداً .

---

(١) سامى باشا : تقويم النيل : المجلد الأول من الجزء الثالث ص ٣٠١

وطير العداءون الخبر إلى كثير من أنحاء الحبشة ، فهلعت قلوب القسوس والرهبان والشمامسة ، وروع الدهماء ، وقلق الرءوس والصدور . وجاء القسوس من أقصى البلاد يسعون ، يحتجون مرة ، وتارة يتوسلون . وكان قلب النجاشى أشد من الصخر الأصم قسوة ؛ وعوده أصلب من الحديد مكسراً . فقال لهم ، وهو يحاورهم : إنى أترك الحكم فى القضية التى بينى و بين البطريرك لله ، ربى وربه . فإذا كان البطريرك بريئاً مما يقولون ، وزوده الله بجناحين ، فطار بهما ، وجاءنى من أعلى الأسوار ، مثلت بين يديه ، واستغفرت لذنبى ، وله فى قديس الحبشة تكلا هيمانوت أسوة . و إن لم يفعل ، ولن يفعل ، فدعونى أصرف شئون الدولة حسبما تقتضيه مصلحتها . وانتشر القسوس والرهبان فى الأرض ، وأخذوا يصلون و يبتهلون لله ، ولكن الله لم يستمع لدعائهم ، ولم يزود البطريرك بجناحين يطير بهما من الحظيرة .

والتجأ رجال الدين إلى أم الملك ، وأرسل إليها البطريرك يستجير بها ، و يؤكد لها أن التهم الموجهة إليه زور و بهتان ؛ وأنه مستعد لارتداء الكساء ، الذى يزعم أعداؤه أنه مسموم ، ليقيم الدليل على أنهم يفترون عليه كذباً .

ولم يعص النجاشى أمر والدته . وجىء بالبطريرك من سجنه . وأحضر الكساء لديهم ، فارتداه البطريرك فى حشد من زعماء الحبشان ، ورءوسهم ؛ فلم يمسه ضر . فلم يطمئن النجاشى لهذه التجربة ، مخافة أن يكون عند البطريرك مناعة ضد السم . فأمر أن يؤتى بمجرم محكوم عليه بالإعدام ، فارتدى الكساء من غير دثار ثلاثة أيام متواليات ، ولم يصب بسوء . فزال ما كان يخامره من شك فى أمر الكساء . ولكن لم يزل فى نفسه شىء من أمر مجىء سعيد باشا إلى السودان ، وتكديسه الميرة والذخيرة فى عاصمته ؛ وجمعه الجيوش فيها ، واستعدادها لتوجيهها إلى أى جهة يريدها . فاقترح البطريرك أن يرسل النجاشى رسالة إلى سعيد باشا فى هذا الشأن يحملها إليه رسل من الحبشان .

وجاء الرد من سعيد باشا فى ٩ جمادى الأولى سنة ١٢٧٣ هـذه صورته :

من محمد سعيد كافل الديار المصرية ، وما يتبعها من الأقاليم السودانية ، إلى حضرة سلطان الحبشة ، ومتملك البقعة النجاشية ، لا زال فى حظ وافر ، وسرور فاخر .

أما بعد حمد الله الآمر بمراعاة حق الجيرة ، وإحسان السيرة ، والصلاة والسلام ، على سائر الأنبياء والمرسلين ، . . . . . والإتحاف بأهدى التسليمات الكثيرة . . . . . فإننا لما كانت جبلتنا الطبيعية نشر أشعة أنوار أنظارنا الخيرية ، وإذاعة أسرار أفكارنا الإدارية ، على من كان تحت أنظارنا من الرعية اهتزت همتنا . . . . بالمرور على الأقاليم السودانية . . . . . فوصل الآن ركابنا إليها . . . . بقصد النظر فيما عليه أهاليها من أحوال . . . . هذا غاية قصدنا ، ولا قصد لنا سواه ، وإن لكل امرىء ما نواه . وحيث كان بيننا وبين حضرتكم حقوق الجوار ، وقرب الدار من الدار ، وصلة المصالح التجارية . . . . فقد رأينا من الاقتضى أن نوجه لحضرتكم هذا الخطاب ليعلم به حقيقة ما قصدناه ، بتقريبنا من هذه الجهة من حسن النية . . . . . وبما نحن عليه من مراعاة حقوق المجاورين لنا . . . . ولأجل أن تكونوا حضرتكم من أسرارنا فى هذا الخصوص على بصيرة . . . (١) »

وعادت الرسل تحمل رسالة سعيد باشا ، فصدق لها النجاشى ، وعرف خطأه ،

---

(١) تقويم النيل : المجلد الأول من الجزء الثالث ص ٢٠٧

وفى هذا التاريخ نفسه ، كتب سعيد باشا إلى سلطان دار فور بهذا المعنى ، يطمئنه ، ويزيل الوسائس التى قد تكون قد ساورته كما ساورت النجاشى . وصورته : من محمد سعيد ..... إلى ..... سلطان دار فور ..... فإنه بحسب ما جبلنا عليه ..... تحركت ركائبنا حتى حل الآن موكبنا بالأقاليم السودانية ..... بقصد تفقد أحوال الرعية .... وحيث كنا من بعضنا بمكان المجاورين ، وكانت الأهالى فى كل مكان من الجهتين لمصلحة التجارة ..... واردين مترددين ، فقد رأينا من الواجب أن نحرر لحضرتكم هذا الكتاب ..... ليحيط علمكم الكريم بحقيقة الغرض المقصود من تنقلاتنا إلى هذه الجهة .... ولتكون حضرتكم من أسرار سرائرنا على بصيرة .... ولا سيما وتجمعنا مع حضرتكم جامعة الإسلام ولا أريد إلا الإصلاح ما استطعت والسلام .....

انظر النص الكامل ص ٢٠٦ من نفس الكتاب .

وندم على تسرعه فى الحكم على ظواهر الأمور ، وتصديقه لقول الوشاة . فأفرج عن البطريرك وذهب إليه يحمل حجراً ، معتذراً عما فرط منه فى حقه وشاع الأمر فى أنحاء الحبشة ، فسرى عن الناس ما كانوا يجدونه من الضيق والحرج ، وعمهم الفرح ورفعت الأعلام على الدور والكنائس . ورفلت الحبشة جميعها فى ثوب من السرور . وجاء الناس البطريرك زرافات ، صبحاً ، وظهراً ، وعشاء من التأثر يبكون .

وطال مكث البطريرك فى الحبشة ؛ وقلق قبط مصر وضاق صدر سعيد باشا ، وأشير عليه بالكتابة للنجاشى فكتب له رسالة فى ٢٨ ربيع الثانى سنة ١٢٧٤ أى بعد نحو أحد عشر شهراً من الرسالة الأولى . وهذا نصها :

من محمد سعيد باشا . . . إلى حضرة سلطان الحبشة . . . .

أما بعد ، أهدى تحية المحبة . . . فالداعى لتحريره . . . هو السؤال عن خاطر حضرتكم . . ثم إنه فيما تقدم حل موكبنا بالأقاليم السودانية ، ولمناسبة المجاورة حررنا لحضرتكم مخاطبة مبنية عن خالص الوداد . . . وللآن لم نحظ بورود ردها . . . فلعل المانع فى ذلك خير . ومتى كانت المودة صافية سليمة . . فلا ضرر ، ولا ضير ؛ وإنما دعت الحاجة للمكاتبة الآن فيما يأتى إيضاحه ، وهو أن رئيس الطائفة العيسوية الأقباط بمصر عرض لدينا ما مضمونه ، أن البطريرك تقدم توجهه إلى الحبشة زائراً ، من مدة شهور . وحضرتكم أبقيتموه هناك ولو أنه محترم عندكم . . . إلا أنه نظراً لغيابه تلك المدة ، تعطلت إقامة شعائرهم الدينية والدنيوية نوعاً ، والتمسوا المخاطبة من طرفنا لحضرتكم أملا فى التعجيل برجوعه ليقوم إليهم بأداء تلك الوظائف . . . ومنه برد الجواب ليتواصل الود والاستحباب ، ودمتم كما رمتم [١]

وعاد البطريرك إلى مصر ظافراً ، يحمل إلى سعيد باشا هدايا كثيرة ثمينة ، أثمنها وثيقة صداقة بين مصر والحبشة .

---

(١) تقويم النيل : المجلد الأول من الجزء الثالث ص ٢٦٠

وبهذا أدرك توضروس نهاية عزه ، ووصل إلى قمة مجده . ونال من الأيد ، والقوة ، والسلطان ، مالم ينله نجاشى من قبله ، ولا من بعده . فتملكه الزهو ، وبلغ به الغرور مبلغاً أبطره ، وأعمى عليه أمره ، فجاز حد الأمور ، وبخاصة بعد موت زوجته الأولى . فلقد كانت زوجة صالحة [١] ، عفة اللسان ، راجحة العقل ، وفية له ، فاجتباها موضعاً لسره ولم يكن يكتمها شيئاً طرأ عليه ، فمحصته النصيحة ، وبصرته بالعواقب ، فصلح وصلحت به رعيته . وكان يحسب حين خلا مكانها ، أن فى الإمكان ، أن يستبدل بها أخرى تحدب عليه ، وتواتيه ؛ وهرب من الخطوب إليها ، فتواسيه . ولكنه تزوج مختالة نخورة ؛ تذهل متعمدة عن حاضره ، وتذكره بماضيه [٢] . فهان عليه أن يغرق فى الكأس نفسه ، وعزه ومجده ، لتغيب هى عن ذاكرته ، فينسى إساءاتها له . وإذا ما صحا ، ورأى تجهمها له ، وذكر همزها ولمزها ، فر منها ، وارتمى بين أحضان الرذيلة ، وسدر فيها ، وأوضع ، أو ذكر فظاظتها ، وغلظ قلبها ، وقسا قلبه وتحجر ، فقتل من غير ذنب ، ولم يحسن القتلة ؛ وأسرف فى التمثيل بمن خالف أمره [٣] ، أو عارض رأيه . فأنت الحبشة من أقصاها إلى أقصاها من ظلمه وعسفه ، وتطاولت أعناق الرءوس ؛ وهموا بنقض عهده ، وثارت عليه بعض قبائل الجلا ، فنكل بهم نكالا لم ينكله أحد بأحد . وفى أثناء ثورته النفسية هذه ، وانتقاض الناس عليه ، زج نفسه فى خلاف مع بريطانيا العظمى بسبب أمور تافهة ، انتهى بحرب [٤] ، خذله فيها كثير من جنده وأعوانه ، وخانه بعض الرءوس ، وانضموا إلى أعدائه . وانتهزها بعضهم ، فثار ، وأعلن استقلاله . وأمام هذه الخطوب ، التى اصطلحت عليه ، هجر عاصمته دبراتابر ،

---

(١) كان الغرض من زواجها منه أن تحتال على هلاكه ، ولكنها أحبته ، وأخلصت له ، ولقد تقدم ذكر ذلك مفصلا .

(٢) كانت زوجته الثانية ابنة رأس تيجرى وكان زواجه منها غير موفق.

(٣) راجع حادث جزيرة مقراها وقصة الرءوس التى مثل بهم أشنع تمثيل .

(٤) حملة السير نابير التى نزلت فى أرض الحبشة سنة ١٨٦٧.

بعد حرقها . ووقف للأعداء فى مجدلا . ولقد أبدى ، فى أثناء تراجعه من فهم للفنون الحربية ما أذهل عقول قادة الحملة البريطانية ، واسترعى تقديرهم لكفايته الشخصية .

ولكن شجاعة توضروس ، وكفايته الحربية ، واستماتة جنوده المخلصين فى القتال لم تغن فتيلا أمام عدد الحرب الحديثة والفن الحربى الحديث . فلم يك غير دقائق معدودات حتى فر الحبشان لا يلوون على شىء ، من هول ما رأوا من فتك آلات البريطانيين الحربية .

واعتصم الإمبراطور ومن تبعه من جنوده المخلصين إلى القلعة ، فلم تصدر عنه . واقتحمها البريطانيون فوجدوه قد قتل نفسه ، مفضلا الموت على أسر الأعداء .

منليك الثانى

حمل منليك ، ولما يطرّ شاربه ، أعباء مُلك وطّده جده ودعمه ، وأضعفه أبوه وأوهى بنيانه . عهد له أبوه بالملك وهو يعالج سكرات الموت ، والقتال محتدم ، وصليل السيوف ، ودوى المدافع ، يقرعان سمعه قرعا عنيفاً .

ولم تثن الملك الطفل فجيعته فى أبيه عن القتال فخاض غمار الحرب ، وقاتل حتى خانه المجال ، وتفرق عنه جنده وأعوانه ، وأخذه كاسا كما قدمنا أسيراً ، وأرسله إلى مجدلا مقر ملكه .

وأكرم كاسا مثوى منليك ، وأنزله فى بيته منزلة الولد ، ولكنه كان يشعر بمرارة الهزيمة ، وذل الأسر . ولم تكن نفسه الكبيرة ، ترضى بالدون ، ولكنها كانت تصبو لمجد مؤثل وملك عريض ، وشغل كاسا عنه بقتال البريطانيين ففر ، والتجأ إلى ملكة وولو جلا ، واستجار بها فأجارته ، وهى تعلم أن ابنها ، فى قبضة توضروس وجاءها رسل توضروس يخيرانها بين ابنها وتسليم الأمير الهارب ، فرفضت الملكة الأبية أن يمتهن جوارها ، وتخفر ذمتها ، فكلفها ذلك الإباء تاجها ورأس ابنها .

وتمكن منليك مرة أخرى من الهرب ، ووصل إلى شاوة شريداً ، فقابله قومه بالحفاوة ، والتكريم ، والتفوا حوله ، ونصبوه ملكا عليهم (١٨٦٥ م) .

وقضى منليك ثلاث سنين (١٨٦٥ م — ١٨٦٨ م) فى تدعيم ملكه ، وتنظيم جيشه ، وصد عدوان الجلا عن أطراف بلاده . ولما مات تيودور سنة ١٨٦٨ م أطلق سراح أمراء شاوة الذين كانوا فى أسره ، فشدوا أذر منليك وزينوا له السعى لملك الحبشة ، فانتهز فرصة اشتغال رأس تيجرى الذى كان قد أخضع ولايات الحبشة الشمالية بعد موت توضروس مستعيناً بمعدات الحرب الحديثة التى منحها له البريطانيون عند

انسحابهم من الحبشة ، جزاء ما قدمت يداه لهم ، من مساعدة فى حربهم مع توضروس ، والذى لم يلبث أن أعلن نفسه امبراطوراً على الحبشة، باسم يوحنا. وانتهز منليك فرصة اشتغاله بصد هجوم الغزاة المصريين ، على ثغور الحبشة [1] ، فغزا أرضه ، ولم يثنه عن المضى فى اجتياحها . إلا شبوب فتنة فى شاوة . فأسرع راجعاً لإخمادها .

ولما تم ليوحنا صد الغزاة ، سار بخيله ورجله إلى شاوة يبتغى الانتقام من منليك ، لغزوه بلاده ، وكانت جيوش تيجرى أكثر عدداً ، وأحسن عدة ، فما هى إلا جولة وجولة حتى انهزمت جيوش شاوة . وأحنى منليك رأسه ، أمام الإمبراطور يوحنا .

وبذلك فقدت شاوة استقلالها كرة أخرى (سنة ١٨٧٨ م) .

وفى هذه الأثناء ظهر الإيطاليون فى شرق الحبشة . بدءوا ، كما بدأ البريطانيون فى الهند وانتهوا ، كما انتهوا . بدءوا بأن اشترت شركة إيطالية ميناء عسب ، من سلطان تلك الجهات . ولم تلبث أن وسعت أملاكها تدريجاً . وفى سنة ١٨٨٢ م آلت هذه الأملاك إلى الحكومة الإيطالية . وفى سنة ١٨٨٥ م ضمت إيطاليا ميناء مصوع

---

(١) لم يكتف إسماعيل ، وكان ملكا طموحاً ، بامتداد امبراطوريته جنوباً إلى أقاصى وادى النيل ، مطوقاً الحبشة من الغرب ، بل طوقها من الشرق والجنوب ، باستيلاء جيوشه المظفرة على بلاد الدناكل ، والصومال وجزء من بلاد الجلا ، ووصولها إلى نهر الجب جنوباً ، وبلاد هرر شمالا (سنة ١٨٧٥ م) بعد أن نزلت له الدولة العثمانية ، صاحبة هذه الأقطار ، منذ القرن السادس عشر ، عن مديريات مصوع وسواكن سنة ١٨٦٦ م ، وعن زيلع ، وما يتبعها من الأراضى سنة ١٨٧٥ م ، ويشهد كثير من الرحالة الأوروبيون ، الذين جاسوا خلال هذه الإمبراطورية المصرية العظيمة ، وزاروا بعض مدنها فى عهد الحكم المصرى ، بأن المصريين كانوا رحمة لأهلها ، وسلاماً عليهم ، فقد نشروا الأمن فى ربوعها ، وأحلوا النظام محل الفوضى ، ومكنوا للعدل فى الأرض ، وقضوا على ظلم الولاة الغاشمين ، الذين يضرب المثل بظلمهم . ولقد بلغ من ظلم أحدهم ، أنه كان يحرم على الناس أكل أصناف الطعام التى تطيب له ..... فاطمأنت بذلك قلوب الناس ؛ وأمنوا على نفوسهم ، وكراماتهم ، وأموالهم ؛ فنشطت التجارة . ولقد أرسلت مصر المهندسين البارعين فعبدوا الطرق ، وسافوا المياه إلى المدن ، بعد درس الينابيع والمجارى المجاورة ، وبنوا المنارات لهدى السفن ، والمستشفيات لمعالجة المرضى ، بعد تزويدها بالأطباء ، والأدوية الحديثة ، والمدارس لتعليم الصبية العلم. « انظر كتب الدكتور محمد صبرى فى هذا الموضوع وكتاب تقويم النيل ، وعصر إسماعيل باشا ، المجلد الثالث من الجزء الثالث : لأمين سامى باشا » .

إلى أملاكها ، منتهزة فرصة الثورة المهدية ، وتقلص ظل الامبراطورية المصرية التى ترامت من قبل أطرافها ، واتسعت أكنافها ، حتى أحاطت بالحبشة من كل مكان .

وسرعان ما اصطدمت الحبشة بإيطاليا ، فقد فتك الحبشان ببعض الجنود الإيطاليين . وغضبت لذلك إيطاليا . وهمت بأن تثأر لهم ، لولا أن غلب السلام ؛ وانتهى الأمر بالصلح .

وما كادت الحبشة تسوى مشكلة الحدود الشرقية ، ولو إلى حين ، حتى جدت مشكلة أخرى فى الغرب .

وذلك أن المهدى قد ظهر فى السودان ، فأذعن أهله لتعاليمه ، ونزلوا على حكمه ، وحكم خليفته من بعده ، وكلاهما قيل من أنفسهم ، فشعروا بالعزة والمنعة ، وأنسوا من أنفسهم البأس والقوة ، فسولت لهم فتح الأمصار المجاورة ، متأسين بالخلفاء الراشدين ، فهاجموا مصر فردوا على أعقابهم خاسرين ، فيمموا شطر الحبشة ، وغزوا ثغورها . فخف للقائهم النجاشى يوحنا ، وكانت حرب بين كفأين لا يعدل أحدهما الآخر ، فعلى الرغم من اقتحام الدراويش الحدود الحبشية ، واستيلائهم على مدينة جندار ونهبها ، فإنهم وجدوا أنفسهم عاجزين عن متابعة القتال فى أرض الحبشة . فعادوا أدراجهم قانعين بجثه الأمبراطور ، الذى كان قتله بحربة طائشة سبباً فى انتشار عوامل الهزيمة بين صفوف الحبشان بعد ما أوشك أن يكون النصر لهم .

وما أن علم منليك بموت الإمبراطور يوحنا حتى أعلن نفسه نجاشياً ، وأذعنت له الحبشة ، وسرعان ما مدت له إيطاليا يدها فتقبلها ، وعقدت بين الطرفين معاهدة صداقة ضمت بمقتضاها أسمرا إلى إيطاليا وتبادلا الممثلين السياسيين . وأخلص منليك للمعاهدة ثلاث سنين سوياً ، بدأ يخامره الشك من بعدها ، فى نوايا إيطاليا الاستعمارية حين رأى تقرب الصديقة من رأس تيجرى ، ومن ولى عهد الإمبراطور السابق

يوحنا . وأصبح الشك عنده يقينا حين علم أن نص المعاهدة الأمهرى والإيطالى مختلفان[١] فنقضها غير مبال بالنتيجة .

وشاع فى الحبشة خبر انفصام عرا المعاهدة ، وانتهز بعض الرءوس فرصة اشتباك الإيطاليين مع الدراويش فى حرب فغزوا أرضهم ، فهزمهم الإيطاليون وتبعوهم داخل الحدود الحبشية ، فخف منليك وجنوده لملاقاتهم . وكان عدة جيش منليك تسعين ألف؛ فاضطر الإيطاليون للتقهقر ، أمام هذا الجيش اللجب ؛ وأرسلوا إلى أهلهم يطلبون المدد. وجاءهم المدد على جناح السرعة ، وكل جيشهم ، ثلاثة عشر ألف جندى ، مزودين بأحدث العدد الحربية . وشاور منليك قواده ومشيريه فى الأمر ، فأشاروا عليه باحتلال ربوة حصينة ، بجوار عدوة ، فاحتلها ؛ فهاجمه الجيش الإيطالى غير متحرز فدارت الدائرة عليه ، وهزمه الحبشان هزيمة نكراء ، كان لها دوى عالمى ،وأثر كبير فى السياسة الدولية ، وأحدثت هذه الهزيمة ، تغييراً كبيراً ، فى نيات الدول الغربية نحو الحبشة .

وأبرمت معاهدة الصلح بين الحبشة و إيطاليا . اعترفت فيها إيطاليا باستقلال الحبشة التام ، وتلت المعاهدة اتفاقات ، بشأن تعيين الحدود بين المستعمرات الإيطالية (ارتريا والصومال) والحبشة .

ولقد استرعى انتصار الحبشة على دولة أوربية كبيرة أنظار الدول الأوروبية الأخرى نحوها ، ولغط العالم باسم نجاشيها ، وسارعت الدول إلى خطب ودها — ود القوى المنتصر — و إرسال البعوث إليها ؛ ومدها بعدد الحرب الحديثة التى استعان بها منليك فى حروبه مع الجلا ، التى انتهيت بخضوعهم له ، وضم أرضهم إلى الإمبراطورية الحبشية . وبذلك استعاضت عما اقتطعته الدول الأوروبية (بريطانيا العظمى وفرنسا وإيطاليا) من أراضيها الساحلية .

---

(١) يحرم النص الإيطالى على الحبشة اتصالها بالدول الأجنبية الأخرى اتصالا سياسياً إلا عن طريق إيطاليا على حين أن النص الأمهرى خلو من هذا التحريم أو المنع .

كتب اللجنة

فى هذه الفترة الوجيزة بعد تكوين اللجنة أصدرت — عدا الكتب المدرسية — الكتب الآتية :—

رقم مسلسل	اسم الكتاب	اسم المؤلف	محتويات الكتاب
١	يسألونك	الأستاذ عباس محمود العقاد	يتحدث عن كثير من المشكلات الاجتماعية والأدبية التى يتساءل الإنسان عنها . ويجد فى هذا الكتاب الجواب الحازم السديد ، يقع فى ٢٧٢ صفحة وثمنه ٢٥٠ مليما عدا البريد
٢	أثر الشرق فى الغرب	الدكتور فؤاد حسنين المدرس بكلية الآداب جامعة فؤاد الأول	ترجم عن مستشرق ألمانى رفع من شأن الشرق ، ووصف حضارته فى مختلف النواحى عدد صفحاته ١٢٨ وثمنه ١٥٠ مليما عدا البريد
٣	مشكلاتنا الاجتماعية	الأستاذ محمد عطية الأبراشى المراقب المساعد للتعليم الحر بوزارة المعارف العمومية	يتحدث عن كثير من المشكلات الاجتماعية لاسيما مشكلات الفقر ، والجهل ، والمرض . فيه تحليل دقيق لكثير من أدوائنا الاجتماعية وعلاج حكيم حازم لها عدد صفحاته ٢٤٠ وثمنه ٢٥٠ مليما عدا البريد
٤	قصة الكهرباء واللاسلكى	الأستاذ محمد عاطف البرقوقى المفتش العام للعلوم بوزارة المعارف العمومية	يتحدث عن قصص علمائها ، وتطور مخترعاتها ومواصلاتها ، السلكية واللاسلكية ، الرادار فى الحرب والسلم ، محلى بصور العلماء والمخترعات . عدد صفحاته ٢٥٦ وثمنه ٢٥٠ مليما عدا البريد
٥	الغزل عند العرب	الأستاذ حسان أبو رحاب مدير إدارة التحريرات العربية بوزارة المعارف	يتحدث عن معنى الغزل وألفاظه ، ونشأته ، ودواعيه وشغف العرب بالغزل وأثر الغزل وتطوره . دراسة تحليلية فى أسلوب شائق وتصوير رائع تغذى القلب والذوق والعاطفة ، يقع فى ٢٥٦ صفحة .

فى سنة ١٨٩٤ منحت الحبشة لشركة فرنسية امتيازاً بمد سكة حديد جيبوتى . واعترضت هذه الشركة صعاب كادت تئدها وتعلن إفلاسها ، لولا أن سارعت الحكومة الفرنسية لنجدتها، فتمكنت من مد الخط من ميناء جيبوتى إلى بلدة ديردوا سنة ١٩٠٢ . وفى هذه السنة (١٩٠٢) أبرمت بين الحبشة و بريطانيا معاهدة عينت فيها الحدود بين الحبشة والسودان ، وتعهدت الحبشة فيها ، بعدم التعرض لموارد النيل الحبشية .

وتلا هذه المعاهدة ، قدوم بعثات تجارية ، وسياسية من مختلف الدول ، وتعيين قناصل ، وممثلين سياسيين لدى البلاط الإمبراطورى .

وفى سنة ١٩٠٦ عقد اتفاق ثلاثى ، بين بريطانيا العظمى ، وفرنسا ، وإيطاليا ، حددت فيه المصالح المختلفة ، للدول الثلاث ؛ وضمن فيه استقلال الحبشة ، وسلامة أرضها.

وفى سنة ١٩١٣ مات منليك ، ذلك الرجل الذى وطد مملكة الحبشة ، ودعم أركانها ، ووسع رقعة أرضها ، وأعلى شأنها بين الدول . اعتلى عرشها ، وهى واهية العرا ، مقسمة بين رءوس متفرقين ، توشك أن تصبح نهباً مقسما ، بين الدول الأوروبية العظمى، وتركها إمبراطورية مهوية ، مرعية الجانب ، ذات مِرّة وسيادة.

مات منليك الثانى ، وكان قد أوصى بالملك من بعده لحفيده ليج ياسو ، وكان حدثاً مدللا . سقط عليه الملك ، ثمرة فجة ، لما تنضجها الأيام ، وجاء إليه صولجانه ، حزمة من العيدان ، ولما يدمجها الاجتماع المتصل ، والشعور بالمصلحة المشتركة .

وكان ملك منليك ، طويلا عريضاً ، يشمل ممالك وإمارات ، وولايات لا يربطها رباط المصلحة ، ولا يجمعها أواصر الدم ، أو اللغة ، أو الدين ، أو الثقافة ، جمعها بالدم ، والنار ، وربطها برباط الخوف .

ولقد حكم منليك ، هذا الملك حكما أوتوقراطياً ، عماده القوة الغاشمة ، وعدته جيش لجب ، مزود بعدد الحرب الحديثة .

وعلى الرغم من كل هذا ، فقد استقام له أمر الدولة والتأمت شئونها ، وسلس

له قياد رءوس الولايات ، وخلصت له قلوب الجماهير . ولابدع ، فقد كانت فيه صفات الزعيم ، ومزايا معبود الجماهير ؛ التى لخصها بعضهم فيما يلى :

١ — شخصية قوية جذابة .

٢ — كفاية نادرة .

٣ — همة قعساء .

٤ — نزاهة شماء .

٥ — توافق خواطره مع خواطر شعبه .

٦ — اتفاق أغراضه ، وأهدافه ، مع أغراض قومه وأهدافهم .

٧ — قدرته على كبح جماح نفسه حين ينبغى .

ولقد وصف سفدج لندر ، الرحالة المشهور ، مكانة منليك ، فى نفوس بنى وطنه قال : «وكلمة الإمبراطور (يعنى منليك) نافذة فى رعيته ، وهم يعبدونه عبادة كأنه إله ؛ ويشاركهم فى ذلك غير الأحباش ، من القبائل الخاضعة لهم ، وكلمته شريعة لهم ، وأمره مطاع فيهم ، ورجاله يتغلبون على أعدائهم ، بما لهم من الهيبة فى النفوس ، لامهارتهم الحربية . فإذا توفى منليك ، لم يسهل على من يخلفه ، أن يقبض على زمام البلاد ، لاسيما أن عيون الدول الأوربية طامحة إليها من كل الجهات[1] » .

---

(١) سفدج لندر ، واختراقه إفريقية ؛ الرواد ص ١٣٣

ليج ياسو (١٩١٣ — ١٩١٦)

الإمبراطور ليج ياسو وعن يمينه الرأس تفرى

وعلى الرغم من صغر سن ليج ياسو، فقد كان مُبَصَّرًا بالأخطار المحدقة بإمبراطوريته من كل صوب ، فإيطاليا تحدجها من الشمال ، ومن الجنوب ، بنظرات فاحصة، لترى مواطىء أقدام جندها ، وبريطانيا ترنو إليها من الشرق ، ومن الغرب ، لتتبين أى اللقم أسوغ وأجدى . وفرنسا من بينهما تختلس النظر إليها ، وتتربص بها الغوائل ، ليفرض لها شيئا منها عند قسمتها . بينا يكتنف حدودها بحر من الأمم الإسلامية ، وفى داخل حدودها ، قبائل إسلامية قوية ، راغبة عن حكم الحبشان ، ومواليـة وجهها شطر

إخوانها فى الدين . عبر الحدود ، وعبر البحار .

وجاءته جواسيس الألمان ، ودعاة الأتراك ؛ بعد قيام الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ م — ١٩١٨ م) يبصرونه بمطامع بريطانيا وحلفائها وبضرر الثقة بهم ، والاسترسال إليهم . ولم يقفوا عند الحقيقة ، بل تعدوها إلى التهويل والتفزيع فاهتال ، وكاد يتفرع عليه عقله .

رأى ليج ياسو ، بعد تردد طويل مال به إلى مجالس اللهو والشراب ؛ فألهته عن تصريف شئون الدولة ، وأذهلته أحياناً ، عن استقبال الرءوس وحكام الأقاليم ؛ ومنها القاصية ؛ ومنها الدانية ؛ فتؤجل أعمال اليوم إلى الغد ، وأعمال الغد إلى ما بعد الغد ؛ فينصرم حبل الأمور ؛ وتضيق صدور الرءوس والحكام ؛ وهم مزهوون ؛ مرهفو الحس ؛ من إمهالهم إمهالا يرون فيه إهمالا لهم ؛ وتحقيراً لشأنهم : رأى ليج ياسو ، بعد هذا التردد الضار ، أن من حزم الأمور أن يستجيب لدعاة الترك الذين وعدوه بملك عريض ، يشمل الحبشة والسودان المصرى الانجليزى ، وجميع المستعمرات الإيطالية ، والبريطانية ، والفرنسية ، فى القرن الشرقى .

وليس بمستغرب على ليج ياسو أن يصدق لقولهم ، لأن الحبشان جميعاً لم يكونوا يوجسون خيفة على وطنهم من الألمان أو الأتراك ، ولكنهم كانوا يرهبون كما ذكرنا إيطاليا ، و بريطانيا ، وفرنسا ؛ تلك الدول التى أحاطتهم بمستعمراتها ، فحالت بينهم ، و بين البحر ، طريقهم إلى العالم الخارجى ؛ وحبستهم فى قلعتهم الجبلية ؛ وأخذت عليهم مهاربهم ؛ ولم يحل بينها و بين اقتسام أرضهم ، إلا تنازعهم على طريقة قسمتها ، وعلى مقدار حظ كل منها .

تنكر ليج ياسو للحلفاء ، وجهر بميوله السياسة ، وأخذ يلوذ بالمسلمين ، ويغشى مجالسهم ؛ ولم يلبث أن اعتنق الإسلام ، وتزوج أميرة مسلمة . فانتهز دعاة الحلفاء هذه الفرصة الذهبية ، فأثاروا القسيسين والرهبان ؛ و بثوا روح التمرد والعصيان ، بين

الرءوس وحكام الولايات المسيحية ، واندسوا بين دهماء المسيحيين يشبهون عليهم أمره ، ويرهقونه ميناً وباطلا ، وثارت ثائرة مطران الحبشة ، وأحل الناس من بيعته ، واجتمع بعض الرءوس ورؤساء الدين وأجمعوا أمرهم على خلعه ؛ وتولية الأميرة زوديتو

الامبراطورة زوديتو

ابنة منليك ، وخالة الإمبراطور المخلوع : لتعلق الناس ببيت منليك .

وعمت البلاد فتنة عمياء ، وانقسم الناس شيعتين ، أهـــل الجنوب ، وجلهم من الجلا المسلمين يناصرون النجاشى المخلوع ؛ وأهل الشمال ، ومعظمهم من الأمهرا المسيحيين ، ويلتفون حول زوديتو : وقامت حرب أهلية . والتقى الجمعان ، وغلبت فئة الجنوب فئة الشمال ؛ وتقدم الجيش المنتصر نحو العاصمة ، حتى لم يبق بينه و بينها ، إلا بضع كيلو مترات ، وقلول جيش منهزم ؛ فانتشر الذعر والهلع بين سكان العاصمة وغادرها من الخوف والرعب بعضهم ؛ وعمد قائد الجيش المنهزم إلى الخديعة ؛ فافترى على قائد الجيش الظافر كذباً بإخباره أنه يعترف بالهزيمة ؛ وأنه قرر لذلك التسليم له ، ورجاه التوقف عن القتال ، حتى يفاوض ولاة الأمور فى العاصمة فى شروطه ؛ فانطلى عليه محاله ؛ فكف عن القتال ، فأفلتت من يده الفرصـة ، وأسقط بذلك الصولجان من يد ملكه و إمبراطوره ؛ لأن أهل الشمال كانوا يجمعون جموعاً جديدة ، وجاءت إليهم جنود ، لم تذق طعم الهزيمة ؛ و بدأت معركة كانت مائعـة ، فى بادىء الأمر ؛ ثم بدأت ترجح كفـة أهل الجنوب ، ولـكن جاءت لأهل الشمال نجـدة فى الوقت المناسب ، فهجم الرأس كاسا ، قائدهـا ، على جناح جيش الإمـبراطور ؛ فتضعضع ، ودارت الدائرة عليه ؛ وتم بذلك النصر لأهل الشمال .

ومات ليج ياسو فى معتقله ؛ ولم تلبث زوديتو أن تبعته . وانطلقت إشاعات السوء عن موته وموتها ؛ ولـكنا لا نعلم من أمر موتهما علماً واضحاً نتكلم عنه أو نكتبه .

وخلصت الحبشـة للرأس تفرى (١٩١٦ — ١٩) وتوج عليها إمبراطورا ، باسم هيلاســلاسى ؛ وأضفى عليه لقب امبراطرة الحبشة التقليدى « الأسـد القاهر من سبط يهوذا ، المختار من الله ، ملك ملوك أثيوبيا . » وذلك فى حفـل ، لم تشهد الحبشـة مثله . فقد جاءت إليها الوفود والبعوث ، من مشـارق الأرض ومغاربها ، ومن بين أفرادها عدد من أمراء الأسر المالـكة ، لتمثيل بلادهم ، فى هذا الحفل العظيم .

وأخذت الحبشة ، فى عهد الإمبراطور هيلاسلاسى ، بأسباب التقدم ، واستقدمت عدداً من الإخصائيين الأجانب ، وأرسلت لفيفاً من أبنائها إلى أمريكا ، وأوروبا للدرس . . . . . .

ولكن إيطاليا التى لم تنس هزيمتها فى عدوة ، كانت لها بالمرصاد ؛ فهاجمتها من غير جريرة أدعتها عليها ، ومن غير إنذار بحرب . فخرت الأمة الشجاعة مكبة على وجهها ، منهوكة القوى ، بعد أن صبت عليها القوة الغاشمة الظلوم من سماء أرضها ، غازات خانقة ، وسوائل سالقة ، وقنابل محرقة ومدمرة .

وغادر الإمبراطور وأهله و بعض قواده أرض الوطن ، واعتصم بعض الرءوس ، و بعض جندهم ، وأتباعهم ، بالجبال العالية ، يتحينون الفرص للإيقاع بالإيطاليين ، و يتربصون بهم الغوائل .

وسلط المرشال جراتسيانى[1] على الحبشان ، فاستبد وأذل أعزتهم . وحاول أحدهم قتله فى ١٧ فبراير سنة ١٩٣٧ ، فلم يصبه إلا بجرح صغير ؛ فنكل بهم تنكيلا لم ينكله أحد ؛ من ذلك قتله من سكان العاصمة وحدها تسعة آلاف نفس بريئة ، و إفناؤه أسر الحكام السابقين فى الولايات القريبة من العاصمة . وحرقه كنائس جوجام ؛ و إعدامه مئات من القسيسين والرهبان ، و إخراجه مئات من ذوى الثقافة الغربية من ديارهم .

ولقد حاول الدوق داوستا ، الحاكم العام ، الذى خلف جراتسيانى ، أن يستبدل اللين بالشدة ، والرفق بالعنف ؛ ولكن لم تمهله الحرب العظمى الثانية (١٩٣٩م ـ ١٩٤٥م) التى قامت ، فوجدت الجيش الإيطالى ، فى أفريقية الشرقية الإيطالية ، أكثر عدداً

---

(١) أحد القائدين الإيطاليين اللذين اجتاحا الحبشة ، من الجنوب ومن الشمال ؛ والقائد الآخر المرشال بادوليو وهو قائد الجبهة الشمالية والسابق إلى العاصمة .

(٢) The Abyssinian Campaigns p. 12—13

وأوفى عدة ، من الجيوش البريطانية والفرنسية ، التى كان موكولا إليها حراسة مستعمراتهما المحيطة بالحبشة .

وسرعان ماشعر الإيطاليون بقوتهم ، وتفوقهم الحربى ، فاجتازوا حدود السودان المصرى ، واستولوا على كسلا ، وبعض الجهات السودانية الأخرى ، فى يوليو

الحبشان يستقبلون الإمبراطور

سنة ١٩٤٠ . واجتازوا حدود الصومال البريطانى واستولوا على بربرا عاصمته فى أغسطس سنة ١٩٤٠

ولكن فوز إيطاليا كان وشيك الزوال ، لأن سيدة البحار ، وإن غلبت ، فى مبدأ النضال ، لا بد غالبة ، من بعد غلبها . ولم تكن سيادة البحر فى يد إيطاليا وحلفائها ، فحوصرت فى إفريقية وقل عدد جندها ، وانقطعت عنها الميرة ، والذخيرة ، وجاءت النجدات إلى سيدة البحار من كل حدب ، فرجحت كفتها ، وانقلب المدافع مهاجماً ، واندفعت الجيوش البريطانية عبر حدود الحبشة ، والصومال ، وأرتريا ، فاستردت مافقدت ، وأسقطت الامبراطورية الإيطالية ووصل النجاشى هيلاسلاس ، إلى عاصمة ملكه على فرس أبيض تحف به أسنة رماح أجنبية لا تزال فيها تلمع .

وهى موعودة بالجلاء ، وبمنفذ إلى البحر .

جغرافية الحبشـــة

تقع الحبشة شرق السودان المصرى الإنجليزى ، بين خطي عرض °٤ش و °١٥ش. ويفصلها عن البحر الأحمر، إرتريا الواقعة شماليها ، وشرق شمالها . ويحول بينها و بين خليج عدن والمحيط الهندى ، بلاد الصومال . فهى لذلك مشبهة بسويسرا ، لحرمانها من السواحل البحرية ، ولعلو سطحها العظيم .

وتبلغ مساحتها نحو ٤٢٤٠٠٠ ميلا مربعاً (١٠٩٠٠٠٠ كم م) ، أو أكثر من مساحة المملكة المصرية بقليل .

ويبلغ عدد سكانها نحو ١٢ مليون نسمة ، زهاء نصفهم مسيحيون ، ونحو ثلثهم مسلمون ، والباقون وثنيون ويهود[١] .

وهى مكونة من :

١ — هضبة عالية ، أساسها صخور أزلية (أركية) متحولة ، أكثرها من الميكا والشيست ، تعلوها فى إقليم أديجرات ، فى شمال الحبشة ، وغيره طبقات لاحفراوية[٢] من الخراسان الأبيض والأسمر ، تكونت فى أواخر العصر الأول ، أو فى أوائل العصر الثانى ، و يبلغ سمكها نحو ٣٠٠ متر ، ولقد انخفض بعضها ، فى أواسط العصر الثانى (الجورا) فغمره البحر ، وتكونت فى قاعه ، فوقها ، طبقات حفراوية[٣] ، من الكلس ، انحسر عنها الماء ، بعد حين[٤] ؛ فعلتها مجموعتان مختلفتان ، من الصخور البركانية ؛ كونتها البراكين التى نشطت فيها ، أول مرة ، إثر انحسار البحر عنها ؛ ثم هدأت ، ثم نشطت مرة أخرى ؛ وفى أثناء فترة الهدوء تعرضت المجموعة السفلى ،

---

(١) هذا تقدير تنقصه الدقة ، إذ يقدر بعضهم المسلمين بأكثر من نصف سكان الحبشة .

(٢) خالية من الحفريات .

(٣) تحتوى على حفريات .

(٤) وتوجد حول تشلجا ، وأديجرات طبقات من خامات الفحم ، تشبه مثيلاتها فى الهند .

ويطلق عليها مجموعة أشانجى . وهى مكونة[1] من بازلت ودولوريت . تعرضت إلى فعل الماء والهـواء ، فتغضنت من بعد استواء نسبى . أما المجموعة العليا ، وتسمى مجموعـة مجدلا ، فرصوصة فوق السفلى ، رصّاً أفقياً ، نتج عنـه مظاهر التضاريس السلمية ، التى تتجلى بأجلى مظاهرها فى وسط الهضبة . وتعلو المجموعة العليا ، طفوح بركانية ، حديثة التكوين . (العصر الثالث) تكثر فى جهات الهضبة الشرقية ، وفى الأصقاع ، المجاورة لبحيرة طانا ، ويسميها بعض الجيلوجيين طفوح عـدن ، لوجودها ظاهرة فى بعض جهات خليج عدن . وليس لهذه الطفوح نظام طباقى ظاهر ؛ ولـكنها مكدسة تكديساً من غير نظام .

وتظهر هذه التكوينات الجيلوجية واضحة ، فى المنحدر الشرقى للهضبة ، المشرف على سهول الدناكل ، وفى أودية الأنهار العميقة ، وتظهر التكوينات السفلى القديمة ، على سطح الهضبة ، فى أماكن كثيرة ، بفعل عوامل التعرية المختلفة .

وتنقسم هذه الهضبة من حيث مظهرها إلى قسمين يفصلهما على وجه التقريب ، خط عرض أديس أبابا ، عاصمة البلاد .

١ — القسم الشمالى ؛ وهو أشد وعورة ، وأخاديده وأوديته أكثر وأعمق من أخاديد وأودية القسم الجنوبى ؛ وهو وعر المنحدر نحو سهول الدناكل ، (أفار) الواقعة فى شرقه ، وينحدر انحداراً سلمياً ، إلى سهول السودان ، الواقعة فى شماله الغربى . والسلالم العليا أشد انحداراً ، وأوعر من السلالم السفلى . ولقد غير فعل المياه الجارية مظهر الهضبة فقسمتها الأخاديد العميقة التى يجرى فيهـا النيل الأزرق والعطبرة ، وروافدهما ، وفروعهما الـكثيرة ، سيولا جارفة ، فى أثناء طوفان موسم الفيضان ، والتى تتراوح أعماقها بين ٦٠٠ متر و ١٨٠٠ متر ، قسمتها نجاداً مستوية ، تحيط بها هوات

---

(١) مكونة من Trachytic rocks
ويتخلل هذه المجموعة تكوينات من الخراسان والطفل (Shales)

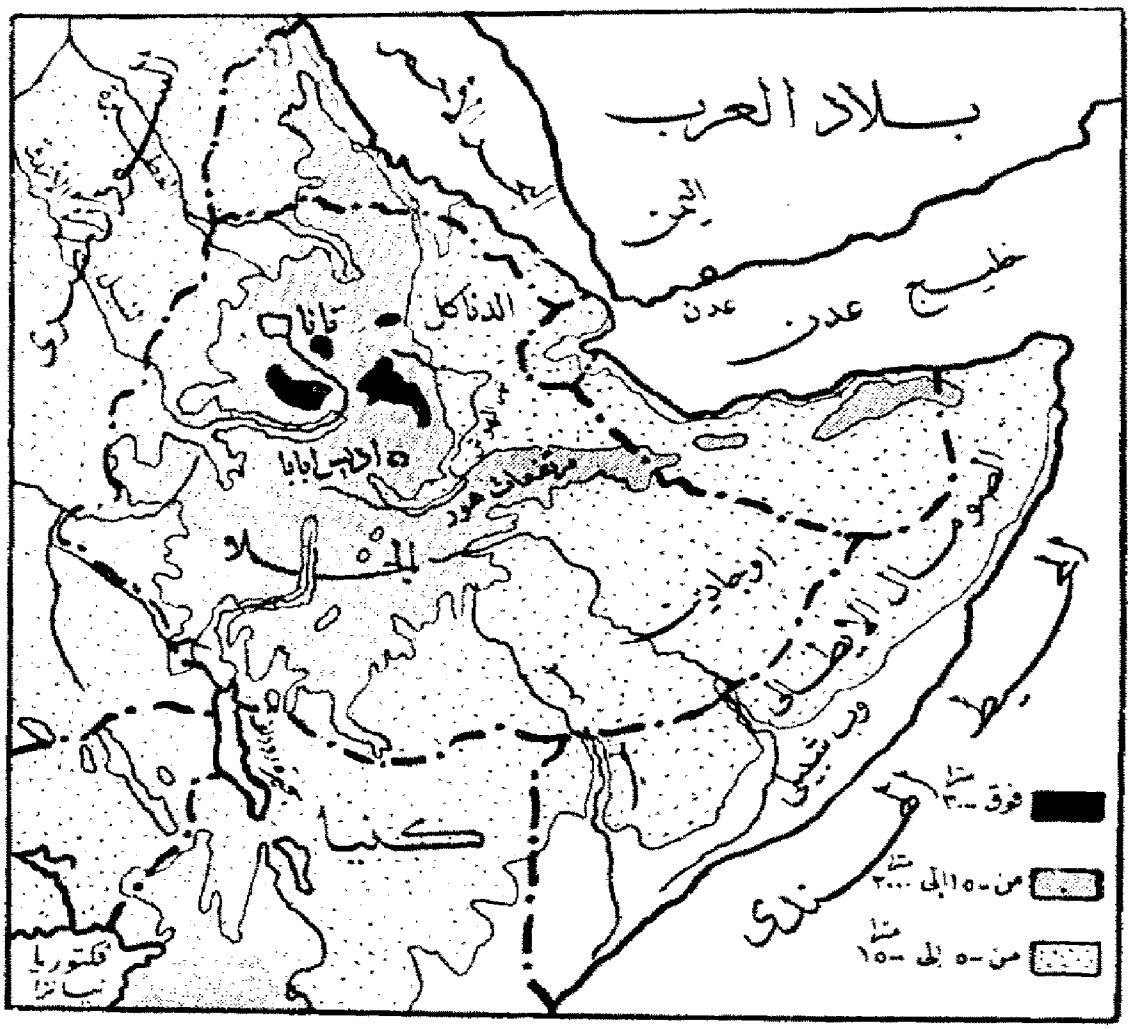

خريطة نمرة ١ ـ تضاريس الحبشة

سحيقة ؛ فيعيش لذلك سكان هذه الهضبات فى عزلة تامة بعضهم عن بعض ؛ وجبالا يربى ارتفاع قممها على ٤٠٠٠ متر ؛ وأشهرها وأعلاها رأس دهشان (٤٦٢٠ م) فى جبال سمين فى شمال الهضبة ؛ وأغسيوس فاترأ (٤٢٠٠ م) أعلى قمم جبال جوچام .

وفى قلب هذه الجبال تقع بحيرة تانا الجميلة التى يصب فيها نحو ثلاثين نهراً ؛

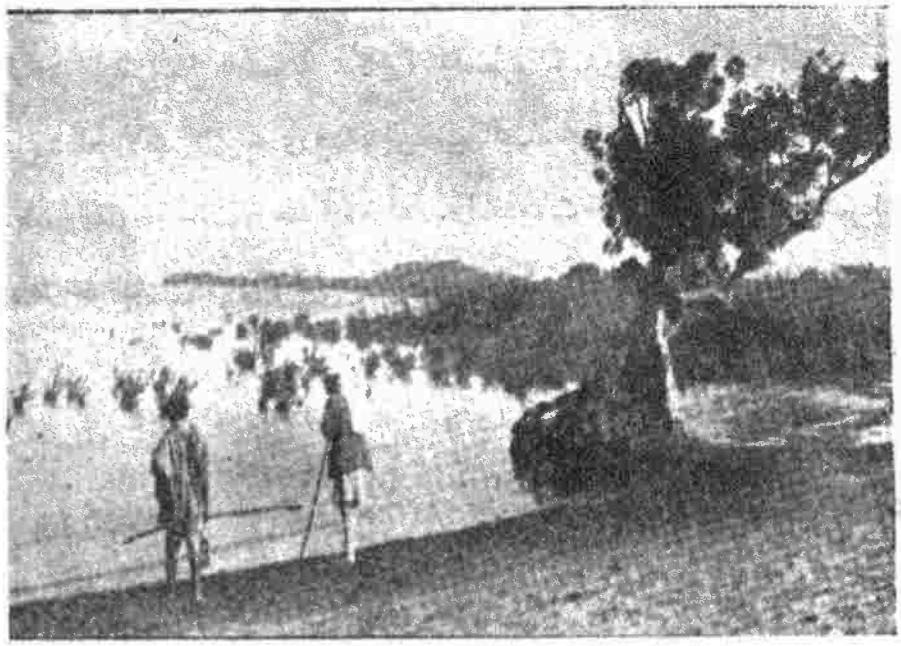

بحيرة تانا ، منبع النيل الأزرق

تجرى فى أودية مكسوة بالغابات تنحدر إليها بين سلاسل جبلية ؛ وقد كونت بعض هذه النهيرات سهولا رسوبية أهمها سهلا دنبعة وفوجارا ؛ ويبلغ طول هذه البحيرة نحو ٥٠ ميلا (نحو ٨٠ كم) وعرضها نحو ٤٠ ميلا (٦٤ كم) وارتفاعها على مستوى سطح البحر نحو ١٨٤٠ متراً (٦٠٠٠ قدما) .

وفى البحيرة عدة جزر فى بعضها أديرة يسكنها الرهبان .

ومن بحيرة تانا ينبع أبای أو النيل الأزرق ، صافياً بعض الصفاء . يخرج من طرفها الجنوبى الشرقى ، من منافذ ثلاثة ، لاعتراض بعض الجزر مجراه . ويجرى

الهوينا ، تحف به الغدران والمستنقعات ، فى قاع التواء أرضى ، (Fold) غير مرتفع الجوانب ، و يضيق مجراه ، و يندفع ماؤه ، فى مواضع ؛ يعود بعدها فيتسع مجراه ، و يبطىء سيره إلى أن يصل إلى مساقط تيزيسات (Tisisat) حيث يثب ماؤه إلى أخدود عميق ، ضيق ، يزداد اتساعاً ، وعمقاً ، إلى أن يصبح وادياً ، أخدودياً عظيما ، مخرما يتلقى من اليمين والشمال ، روافد ، تجرى فى أودية عميقة ؛ تجعل السير على جانبى الوادى العظيم من الصعوبة بمكان ، وتضطره المقذوفات البركانية المكدسة ؛ على سطح الأقاليم التى يجرى فيها ، إلى تغيير اتجاه مجراه عدة مرات ؛ راسماً دائرة عظيمة مفتوحة حيث توجد أضخم هذه المقذوفات البركانية ؛ ويجرى النهر آخر الأمر نحو الشمال الغربى ، حتى إذا وصل إلى حافة الهضبة الشمالية الغربية وثب منها وثبته الكبرى ، إلى سهول السودان ، ليجرى فيها ضعيفاً متهالكا ، على بساط من نسجه .

و يجرى فى هذا القسم نهر العطبرة وفروعه . وأهمها تكازا الذى يجرى فى أخدود . من أطول الأخاديد النهرية العالمية وأعمقها (عمقه ٧٠٠ م — ٩٠٠ م)

(ب) القسم الجنوبى ، و يشمل مرتفعات الجلاّ ، وهو كما قدمنا أكثر استواء من القسم الشمالى ؛ وتقل فيه الأخاديد العميقة . وتجرى فيه بعض نهيرات السوباط (سبت) حاملة بشائر الفيضان للنيل الأبيض ، وكذلك نهر أومو الذى يجرى إلى بحيرة رودلف . و يخترقه الأخدود الشرقى من الجنوب الغربى إلى الشمال الشرقى . وليس هذا الأخدود شقاً متصلا ، ولكنه مكون من عدة أحواض داخلية ، يفصل بعضها عن بعض أعناق مرتفعة ، ولكنها مع هذا منخفضة قليلا عما يحيط بها من الأرض ذات اليمين ، وذات الشمال . وتوجد فى قاع بعض هذه الأحواض بحيرات أخدودية ؛ وفى طرفه الشمالى يجرى نهر الهواش نحو البحر الأحمر ، ولكنه ينتهى إلى قرارة داخلية دونه ، وتشرف الحافتان الغربية ، والجنوبية ، لهذا القسم ، على نجد

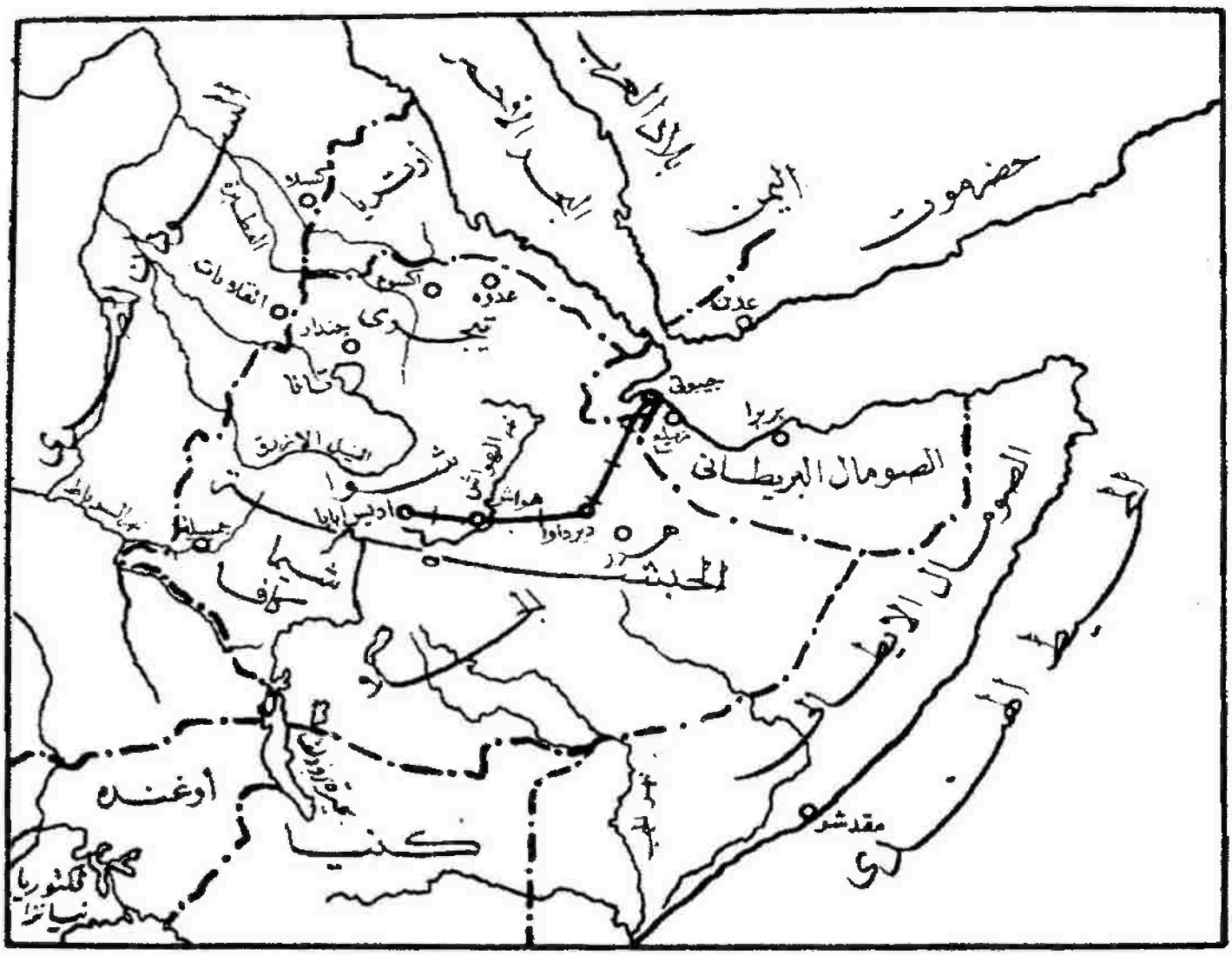

خريطة نمرة ٣ - بلدان الحبشة الهامة

كنيا ، وحوض بحر الجبل ، وتنحدر انحداراً وعراً نحو بلاد الصومال .

٢ — نجاد أوجادين والصومال ، وتمتد امتداداً كبيراً ، فى جنوبى الهضبة ، وارتفاعها يتراوح بين ٦٠٠ متر و ٩٠٠ متر ، فهى لذلك قليلة الارتفاع ، إذا ماقيست بالهضبة ، وتنحدر بوجه عام نحو الجنوب الشرقى ، ويخترقها نهر الجب (جوبا) ، الذى يصب فى المحيط الهندى بعد اختراقه الصومال الإيطالى ، ونهر شبيلى أووب شبيلى ، الذى يجرى فى الصومال الإيطالى أيضاً نحو المحيط ، ولكنه حين يقرب منه ، ولايصير بينه ، و بينه إلا مقدار اثنى عشر ميلا ، تخنقه الكثبان الرملية وتسد عليه طريقه ، وتحول بينه و بين البحر فيجرى نحو الجنوب الغربى محاذياً للشاطىء إلى أن ينتهى إلى مستنقع على مقربة من مصب نهر الجب .

٣ — سهول الدناكل (آفار) :

شرق الهضبة ، وهى سهول صحراوية واسعة ، تشبه صحراء أريزونا الأمريكية فى تكوين سطحها الطفحى . وتتخلل هذه السهول جبال بركانية منفردة على شكل أقماع ، ومنخفضات يقل مستوى سطح بعضها عن مستوى سطح البحر ، وتغمرها المياه فى موسم أمطارها الشتائى فتتحول إلى برك ومستنقعات تجف فى فصل الجفاف[1] وهى بوجه عام ، منخفضة فى الشمال ، وترتفع تدريجياً نحو الجنوب ، حيث يبلغ متوسط ارتفاعها نحو ٦٠٠ متر ؛ ويفصلها عن البحر الأحمر ، تلال إرتريا ، وعن نجاد أوجادين مرتفعات هرر ، التى هى لسان ممتد ، من مرتفعات الجلا وينحدر انحداراً فجائياً نحوها (السهول) ، وانحداراً تدريجياً نحو نجاد أوجادين .

ثروة الحبشة المعدنية :

يظن بعضهم ، أن ثروة الحبشة المعدنية وافرة ؛ ولكن لم يستغل منها إلا البوتاش ،

(١) يرى كندرو أن المطر ينزل فيها فى الشتاء وفى الصيف على السواء ، ولكن أمطار الشتاء أكثر .

وقليل من الذهب ، والبلاتين ، والأحجار الكريمة . ولقد كشف المهندسون الأور بيون عن الحديد والفحم والبترول .

مناخ الحبشة ونباتها :

يختلف المناخ فى الحبشة باختلاف ارتفاع المكان عن مستوى سطح البحر . فسهول الدناكل شديدة الحرارة والجفاف فى الصيف ، ويسقط عليها فى شتائها الحار قليل من المطر ، تلتقطه من البحر الأحمر ، الرياح التجارية الشمالية الشرقية التى تهب عليها ، فهى لذلك جدباء لا ينمو بها إلا الحشائش والشجيرات التى تنمو عادة فى أشباه الصحراء : ولا تنبت الأشجار الكبيرة إلا فى مجارى الأنهار العميقة . ولا تتأتى الزراعة فيها إلا بالرى ، وعلى مراعيها يربى الدناكل سكانها ، الأغنام ، والبقر ، والبغال ، والحمير ، والجمال . ولذا كانت الجلود ، أهم مصدر للثروة ، ويليها فى الأهمية الصمغ العربى ، الذى يجمع من أشجار السنط التى تنمو بكثرة فيها .

أما نجاد أوجادين والصومال فحارة فى الصيف ، دفيئة فى الشتاء ، أى أنها أقل حرارة ، من سهول الدناكل فى أثناء الصيف والشتاء ، لعلوها . وأما أمطارها فصيفية ، قليلة ، وغير مؤكدة النزول (uncertain) ولهذا فهى مراع رديئة الكلأ ، وأهلها ، مثل الدناكل ، رعاة بقر ، وأغنام ، وجمال .

أما الهضبة فيقسمها بعض الجغرافيين ، من حيث حرارة هوائها ، ثلاثة أقسام مختلفة ، أساس اختلافها تباين ارتفاعها عن مستوى سطح البحر .

١ — قلة :

وهى أخفض أجزاء الهضبة (أقصى ارتفاع لها ١٨٠٠ متر) وتشمل جنوبها الغربى ، وبطون أوديتها العميقة ، وكذلك مرتفعات هرر الجافة . ودرجة حرارة هواء القلة مرتفعة طول العام ، ومداها اليومى والسنوى قليل جداً ، نتيجة لخفض الأمطار لها فى الصيف ، وتشبه أودية الحبشة تهائم بلاد العرب فى شدة حرارة هوائها

وركوده ، وهو فوق ذلك ، رطب ، قابض للنفس . ولهذا لا يطيق الحبشان سكنى هذه الأودية ، ولا يعبرونها إلا مكرهين .

جدول نمرة ١

توزيع الحرارة طول السنة

الشهر	أديس أبابا	هرر	الشهر	أديس أبابا	هرر
يناير	١٦و٦°	١٨و٨°	يولية	١٣و٧°	١٨و٨°
فبراير	١٥و٣°	١٩و٧°	أغسطس	١٤و٩°	١٨و٥°
مارس	١٧و٨°	٢٠و٥°	سبتمبر	١٤و٤°	١٩و٥°
أبريل	١٦و٣°	٢٠و٨°	اكتوبر	١٥و٦°	٢٠ و°
مايو	١٧و٣°	٢٠و٨°	نوفمبر	١٦و٣°	١٩و٥°
يونية	١٥و١°	٢٠و٢°	ديسمبر	١٥و٦°	١٩و٥°
			المتوسط	١٥و٧°	١٩و٧°

٢ — القويناديجا (مرتفعات الكروم): ويتراوح ارتفاعها بين ١٨٠٠م و٢٤٠٠م ودرجة حرارة هواء هذا الأقليم قلما تعدو حد الاعتدال لأنه إقليم وسط ، بين القلة الحارة ، والديجا الباردة ، وجهاته أكثر جهات الحبشة عمارة ، ومساحته لحسن الحظ تعدل مساحة الإقليمين المتطرفين أو تزيد .

٢ — الديجا ، أو إقليم المرتفعات : وهو ما زاد ارتفاعه على ٢٤٠٠ م وهو أبرد جهات الحبشة وأغزرها أمطارا ، ومن أقلها عمارة وسكانا .

والحبشة بلد المتناقضات المناخية . فصيفها أبرد من شتائها . والربيع أحر الفصول فيها ، وشتاؤها أدفأ من شتاء سهول السودان المنخفضة ، الواقعة فى عروضها ، على الرغم من إرتفاعها العظيم .

ويعلل كندرو ، الظاهرة الأولى ، بأن تلبد سمائها بالسحب المتكاثفة ، ونزول

الأمطار المتداركة ، فى فصل الصيف ، يخفضان من درجة حرارة هوائه ، إلى مادون حرارة هواء الشتاء .

ويعلل الدكتور محمد عوض بك الظاهرة الأخيرة بأن الرياح التى تهب على الجهات الحبشية التى لوحظ فيها ارتفاع فى درجة حرارة شتائها ، ارتفاعا غير عادى ، جنوبية حارة ؛ على حين أن الرياح ، التى تهب على سهول السودان ، فى هذا الفصل شمالية باردة نسبيا .

أما الظاهرة الثانية فظاهرة لا تحتاج إلى تعليل .

جدول نمرة ٢

توزيع الأمطار على أشهر السنة بالمليمتر

الشهور	أديس أبابا	جميلا	هرر		الشهور	أديس أبابا	جميلا	هرر
يناير	١٥	٧	٩		يولية	٢٧٩	٢٠٩	١٢٩
فبراير	٤٨	١٠	٣٢		أغسطس	٣٠٧	٢٣٧	١٦٠
مارس	٧٠	٣٦	٧٦		سبتمبر	١٩٢	١٨٩	٩٥
أبريل	٨٧	٧٩	١١٩		اكتوبر	٢٠	٨٦	٣٥
مايو	٧٥	١٥٢	١٢٦		نوفمبر	١٤	٤٠	١٥
يونية	١٤٦	١٨١	٩٠		ديسمبر	٦	١٣	١٠
					المجموع	١٢٣٩	١٢٥٩	٧٩٦

وتسقط الأمطار على هضبة الحبشة طول السنة ، ولكن توزيعها بين الشهور غير عادل ، ففى أديس أبابا يسقط فى شهر أغسطس مطر أكثر مما يسقط فى شهر ديسمبر ٥١ مرة؛ وأكثر الشهور مطراً، هى أشهر الصيف، ويسقط فى أثنائها نحو ٨٠٪ من مجموع المطر السنوى ؛ وموسم المطر الغزير أطول فى الجنوب منه فى الشمال . وهذا هو السبب فى أن السوباط يأتى بمقدمات الفيضان وبذيوله . وأغزر جهات الحبشة أمطاراً ، هى غرب الهضبة وجنوبها الغربى ، وفيها منابع روافد السوباط والنيل الأزرق

والمطيرة ومجاريها العليا . ويقل المطر فى جهاتها الشمالية القصوى ، ويتضاءل فى جنوب شرق الحبشة أى فى نجاد أوجادين والصومال .

أسباب أمطار الحبشة الصيفية :

لقد كان يظن — بل ويعتقد — إلى عهد قريب أن سبب أمطار الحبشة الصيفية هو بخار الماء الذى تلتقطه من المحيط الهندى ، الرياح التجارية الجنوبية الشرقية [1] ، التى تدخل القارة جنوبى خط الاستواء ، وتتوغل داخل القارة حتى إذا عبرت خط الاستواء ، انحرفت نحو الشرق ، وأصبحت جنوبية غربية ، وكان يقرن زيادة هذه الأمطار ، وعلو فيضان النيل ، أو نقصها وانخفاض الفيضان بأمطار الهند الموسمية وقد وضح الآن جليا ، أن هذه الرياح عند انتقالها من المحيط الهندى ، إلى قارة إفريقية ، تصطدم بحافة الهضبة الشرقية ، فتضطرها إلى الارتفاع ، فتبرد ، فيتكاثف جل ما تحمله من بخار الماء على السهول الساحلية وسفوح الحافة ، وتصبح إذا ما وغلت فى داخل القارة جافة . فلا يمكن والحال هذه أن تكون مصدراً لأمطار الحبشة الصيفية .

وإذا لم يكن مصدر أمطار الحبشة الصيفية المحيط الهندى ! فما مصدرها إذن ؟

إن مصدرها فى رأى المستر كريج مدير إدارة الظواهر الجوية بمصر سابقاً بخار الماء الذى تحمله الرياح الجنوبية الغربية الموسمية من المحيط الاطلنطى ، وأصل هذه الرياح فى رأيه ، الرياح التجارية الجنوبية الشرقية ، التى تتحول بعد عبورها خط الاستواء ، رياحاً جنوبية غربية ، متأثرة بالانخفاض العظيم على بلاد العرب . فتدخل القارة من سواحل خليج غانا ، وتتوغل فيها ، مارة بالكنغو والكمرون ، ثم السودان المصرى . وتختم مطافها بهضبة الحبشة ، فتعلوها ، فتبرد ، وتسكب عليها ماءها .

---

(١) كان على رأس القائلين بهذه النظرية السير هنرى لبونز مدير المساحة المصرية سابقاً .

ولقد أيد هذا الرأى جمهرة من علماء التيور ولوجيا [١] . غير أن الأستاذ محمود حامد وصاحبه ، مؤلفى كتاب اكتشاف مصدر فيضان النيل ، [٢] يريان أن هذه الرياح ، وإن كانت عاملا هاماً فى أمطار الحبشة الصيفية ، غير كافية وحدها لإحداث هذه الأمطار المتداركة . وقد كشفا بعد دراسة مستفيضة للأرصاد الجوية لقارة أفريقية شمالى خط الاستواء ، والمحيط ، وبخاصة فى جهاتها الغربية وفى جهات المحيط الأطلنطى المجاور لها تيارات هوائية باردة ، تتكون فى المحيط الأطلنطى ، فوق تيار قناريا تتبعه فى سيره نحو الجنوب بإزاء الساحل ، حتى إذا ما وصلت السنغال انحرفت نحو الشرق ودخلت القارة على شكل جبهات هوائية يعلو بعضها بعضاً ، ووغلت فيها مارة بالسودان الغربى حتى إذا وصلت دار فور ، وعدتها ، هبطت حوض بحر الغزال ، وسارت فيه نحو الجنوب الشرقى ، حتى إذا اصطدمت بمنحدر هضبة الحبشة ، انعطفت نحو الشمال ، لتبتغى مسلكا سهلا تعلو فيه إلى سطح الهضبة . وتجد المسلك السهل ، التى تبحث عنه فى شمال الهضبة ، وتسير على سطحها نحو الجنوب ، وبعد أن تسقط ماءها عليه تهبط الصومال جافة ساخنة ، صادة الرياح ، التى تحاول حمل الماء إليه من المحيط الهندى ، فتدرت لذلك الأمطار على بلاد الصومال ، فأجدبت لذلك أرضها . وعندما تهبط هذه الرياح على بلاد الصومال تسير نحو الشرق متأثرة بانخفاض ثانوى ثابت على خليج عدن .

توزيع النبات فى الهضبة :

١ — نبات القلة

تنمو فى القلة غابات حارة (Tropical) تختلف كثافتها باختلاف غزارة المطر ، وفى هذه الغابات أنواع كثيرة من الأشجار المدارية ، كالأبنوس والمطاط ، والموز ، والنيلة البرية ، والتمر الهندى فى المواطن الكثيرة المطر ، وشجيرات البن ، ونخيل

---

(١) من أمثال السير تيرشو ، والسير جلبرت .

(٢) راجع كتاب اكتشاف مصدر فيضان النيل للأستاذ محمود حامد وزميله .

البلح وشجر السنط ، فى البقاع الجافة والمرتفعة ؛ والبن هو أهم محصول طبيعى ومزروع فى الحبشة ، وينمو شجره بكثرة فى مقاطعة كافا ، فى جنوب الحبشة الغربى ، وفى مقاطعة هرر . وحبوب البن الحبشى شديدة الشبه بحبوب البن اليمنى . ويصدر منه مقادير كبيرة إلى الخارج ، عن طريق جيبوتى أو السودان المصرى الإنجليزى ، كما يزرع فى بعض أجزائها القطن وقصب السكر .

زراعة البن فى الحبشة

ويعيش فى القلة الفيلة والأسود والفهود وحمر الوحش والظرافات ، وتدب فى أنحائها الحيات الهائلة والعقارب اللاذعة .

نبات الڤيناديجا :

وتكسو أرض الديجا الحشائش التى تنضر فى أثناء نزول الأمطار وإثر نزولها ، وتجف فى أواخر موسم الجفاف فيطلق الحبشان فيها النيران ، وتربى على مراعى الڤيناديجا الخصيبة ملايين الأغنام والأبقار . وقد كانت تتخللها الغابات الواسعة ، ولكن الأهلين

اجتثوا معظمها ، ولا يزال يغطى كثيراً من أرض الجلا غابات كثيفة وأهم أشجار هـذا الإقليم الخيزران والجميز والشربين .

كما تنمو فيه شجيرات فواكه البحر المتوسط كالتين والزيتون والبرتقال والكروم والبرقوق ، كما تزرع فيه الحبوب كالقمح والذرة والطيف والشعير .

وتقصر الحشائش وتردُأ وتقل الأشجار ، فى الأنحاء الشمالية لقلة الأمطار ، وقصر موسمها هنـاك .

ويعيش فى هذا الإقليم فوق البقر والبغال والخيل والحمير والجمال ، القرود والضباع والغزلان .

نبات الديجـا :

أرض الديجا مغطاة بالحشائش والشجيرات ، وتظهر فى أنحائه العليا نبات الجبال أوالنباتات الألبية ، ويزرع فيه القمح والشعير إلى ارتفاع ٢٧٠٠ متر أو يزيد ، وتربى على مراعيه الماشية والأغنام ذات الأصواف الطويلة والمعزى ، ويرتدى سكانه جلود الضأن اتقاء برده القارس .

والزراعـة فى الحبشة متأخرة ، ومحصولاتها ، إذا اسـتثنينا البن ، لا تصـل إلى الأسواق الخارجية .

وأهم ما تصدره الحبشة البن ، والجلود على اختلاف أنواعها ، والعاج ، والصمغ ، والطيب ، والمسك المستخرج من قط الزبد .

ولايوجد فى الحبشة مصانع حديثة ، ولكن بها صناعات منزلية كثيرة ، كنسج القطن ، وصنع الفخار والأدوات الفضية والذهبية و بعض الآلات الحديدية الأولية .

طرق المواصلات والنقل :

كانت الطرق بمعناهـا الحديث غـير موجودة قبل الحرب الحبشية الإيطالية الأخـيرة ، وكانت تستخدم فى الهضاب العالية ، عجلات تجرها الثيران ، وكذلك

البغال ، والجمال ، فى الركوب ، ونقل البضائع . وفى مراع أوجادين ، يربى نوع جيد من الجمال عليها حمول السكان . وأهم طريق للمواصلات ، هى سكة حديد جيبوتى الفرنسية . وهى تصل أديس أبابا ، بميناء جيبوتى ، عاصمة الصومال الفرنسى . ومسافة ما بينهما ، نحو ٧٩٥ كيلو متر ، يقطعها القطار فى ثلاثة أيام ؛ ولا تسير القطار إلا نهاراً ، خوف اللصوص وقطاع الطرق ؛ ويبرح قطاران كل أسبوع من أديس أبابا إلى جيبوتى ، ومثلهما ، من جيبوتى إلى أديس أبابا .

وأهم منافذ التجارة الحبشية ، بعد سكة حديد جيبوتى ما يأتى : —

١ — الطريق التى تخرج من أديس أبابا ، مغربة إلى جمبيلا على السوباط ، حيث أنشأت الحكومة السودانية ، محطة تجارية فيها ، تبدأ منها بواخر نيلية تسير فى السوباط ثم فى النيل الأبيض إلى الخرطوم ، فى أثناء أشهر الصيف .

٢ — الطريق من أديس أبابا إلى هرر ، ومنها إلى بربرا ، عاصمة الصومال البريطانى ، وجل تجارته من هرر .

بلدان الحبشة :

بلدان الحبشة ، قرى منبثة ، فى أنحائها المختلفة ، بجوار الأجمات والأدغال ، وما يسمو منها إلى مرتبة المدن ، والمدن الصغيرة ، لا يتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة وأهمها وأحراها بالذكر أديس أبابا ، عاصمة البلاد وهرر ، عاصمة الحبشة الإسلامية ، ودير داوه ، وجندار .

أديس أبابا :

كانت عواصم الحبشة القديمة محلات مؤقتة ، يقيم فيها الملك وجنوده ، وكانت عادة ، على ربوة منعزلة ، مغطاة بالأشجار لتكون مستودعا للوقود ، ومحصنة تحصيناً طبيعياً ، ولا تلبث أن تنمو تلك المحلات فتصبح قرى . وإذا ما نفذ حطب الوقود ،

وأصبح الحصول عليه صعبا ، نقلت العاصمة إلى مكان آخر ، يكثر فيه الشجر ، وهكذا دواليك .

وهكذا كان شأن أديس أبابا أو الزهرة الجديدة ، فإن الأمبراطور منليك الثانى مؤسسها ، حل بقسم من تلال آنتتو (Entotto) المغطاة بالغابات ، هو وجنوده ، وحاشيته سنة ١٨٩٢ م . وسرعان ما آوى إليه التجار ، وأصحاب الحوانيت ، وأصبحت محج ذوى الحاجات . وفى هذا الوقت بدأت دول الغرب تهتم بأمر الحبشة ، فأرسلت إليها البعوث التجارية ، والسياسية ، ووفد عليها القناصل والوزراء المفوضون ، وبنوا دوراً فخمة لم تعهدها الحبشة من قبل ، ليسكنوها أو يتخذوها مقراً لأعمالهم ، وجاءها كثير من الأرمن واليهود واليونان والعرب ، و بنوا مخازن للتجارة ؛ وشرعت الحكومة الفرنسية فى مد خط سكة حديد جيبوتى نحو العاصمة الجديدة . ولكن الأشجار التى كانت تستعمل وقوداً بدأت تتوارى ، ففكر ولاة الأمور الحبشان فى نقل العاصمة إلى مكان فيه شجر ، فعارض فى ذلك النزلاء الأجانب ، والقناصل ، والوزراء المفوضون ، محتجين بما صرفوه من مال ، فى تشييد الدور والمخازن ، والحوانيت واقترح بعضهم على الأمبراطور أن يزرع مكان الشجر المجتث ، نوعا من شجر الكافور فاستوردت فسائله من استراليا ، وزرع فنما نماء حسناً ، و بذلك حلت مشكلة الوقود ، وقرت أديس أبابا ، أو الزهرة الجديدة ، فى مكانها إلى ما شاء الله لها أن تستقر ، ورست جزورها فى الأرض ، وترامت أطرافها حتى أصبحت بلدانا فى بلد واحد و بلغ عدد سكانها ثمانين ألف ونيف .

هرر :

كانت عاصمة إحدى المقاطعات السبع التى كانت تكون إمبراطورية زيلع ، التى أسسها العرب ، والتى كانت تسمى دولة عادل ؛ تلك الدولة التى بلغت من القوة والمنعة شأواً ناهضت به إمبراطورية النجاشى فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر .

ولما استولى العثمانيون ، فى أوائل القرن السادس عشر على زيلع ، انتقلت إدارة الملك ومقعد التاج إلى هرر فى سنة ١٥٢١م ، ثم لم تلبث أن قويت ساعد سلطان هرر ، بما أمده الأتراك به من ذخيرة ، وعتاد . فاصطدم بالحبشان ، وغزا بلادهم ، وكاد يتم له الاستيلاء عليها ، لولا أن سارع البرتغاليون ، إلى نصرة إخوانهم فى الدين ، فردوا الغزاة على أعقابهم ، وتقلصت أملاك سلطان هرر ، وضعفت قوته حتى أوشك لا يسيطر إلا على سكان المدينة نفسها . وفى سنة ١٨٧٥ م ضمت هرر إلى الإمبراطورية المصرية بعد أن هزم رءوف باشا القائد المصرى المظفر ، الجلا ، ودخل المدينة فاتحا فى ١١ أكتوبر سنة ١٨٧٥م[١] .

ولم يكد يخلص الأمر لرءوف باشا حتى بدأ يدرس أحوال البلاد من قريب أو بعيد ، فوضح له أن الأمن مختل ، فعمل على استتبابه ، وأن الطرق التجارية مهملة ، فسوّاها . « وجعلها صالحة للعربات وأنشأ عليها محطات عسكرية مزودة بالماء .. وقد ساعد إنشاء المحطات فى تعميم التجارة ، حتى أن القوافل التى كانت تصل من الساحل إلى هرر ، فى عصر الأمراء ، وكان عددها لا يزيد على السبعين ، صار عددها أربعمائة فى السنة ، فى عهد الإدارة المصرية ، وكان من عوامل انتشار التجارة فى البلاد حلول العملة المصرية محل البدل ، أو عملة الأمير التى كانت قليلة الانتشار لا قيمة لها[٢] » .

لقد وضح لرءوف باشا أيضاً أن أجود الأرض بور فشجع الأهالى على زراعتها « وكان يلجأ إلى القوة أحياناً ليرغمهم عليها ، وقد وزع الأراضى بينهم ، فكان الجراد (أو العمدة) يغد عليه ويقدم له خمس بقرات كضريبة فيمنحه قنطاراً من الشيت ، وطاقية وعمامة من بفتة بيضاء ، ويرسل معه مندوبا من قبله يحدد له ألف فدان

---

(١) الدكتور محمد صبرى : مصر فى أفريقية الشرقية : هرر وزيلع : وبربره ص ٦٥

(٢) الدكتور صبرى : ص ٦٦

لاستثمارها ، وكان الملاق (أو شيخ البلد) يحضر بقرتين فيعممه بأربعة أذرع ، ويحدد له خمسمائة فدان[١] » .

رءوف باشا فاتح هرر

(١) الدكتور محمد صبرى : شرق أفريقية الخ ص ٦٧ — ٦٨

ولم تقف همة رءوف باشا عند الزراعة ، فوجه عنايته إلى الصناعة ، فرقى وسائلها فجاد إنتاجها و إلى تجميل المدينة فشيد دوراً كثيرة للمصالح الحكومية المختلفة و بيوتاً للموظفين .

ورأى خلف رءوف باشا ، أن المدينة ينقصها الماء الصالح للشرب ، فساقه إليها من عيون قريبة[1] .

ولقد زار أحد الرحالين الإيطاليين المدينة فى إبّان الحكم المصرى ، فسره ما رآه من إصلاح ، وتقدم ، ونظام ؛ وفى ذلك يقول : إن حالتها المعنوية تطابق حالتها المادية ؛ و إن المصريين تبدو عليهم سيماء الفاتحين ، الرافعين لواء الحضارة إذ يعلمون الأطفال القراءة والكتابة ، والفتيان الصلاة والشريعة السمحاء ، ولا ينكر إنسان أن الطريقة التى يتعهدون بها الأمن ، فى المدينة وضواحيها ، جديرة بكل إعجاب و إطراء ، ومن التحسينات الكبيرة التى أدخلوها النظام القضائى الذى أصبح — على الضد من نظام الأمراء السابقين — يقضى بالعدل من غير هوادة ولا إبطاء .

وهرر تقع على الصفحة الشرقية للتلال المسماة باسمها على ارتفاع ١٧٠٠ متر ، تحف بها التلال المشجرة ، وتحدق بها البساتين اليانعة ، والحقول الخضراء ؛ ويحيط بها سور غير منتظم تتخلله أبواب كبيرة . و بيوتها مربعة الشكل مبنية من أحجار الجرانيت ، وأحجار الجير ، وأكبر بناء فيها مسجدها الجامع ، ويزيد سكانها على الثلاثين ألفا .

ولأهل هرر لغة خاصة بهم ، والهرريون سمر الوجوه ، وفى سمرتهم صفرة ، ولهم لحى قصيرة وأطراف كبيرة .

ويعيش فى الحقول المجاورة لهرر بعض قبائل الجلا ، الذين تحدثنا عنهم فى غير هذا المكان .

---

(١) الدكتور صبرى : ص ٦٢ — ٦٥

رجل وزوجته من أهل هرر

وهرر بلد تجارى كبير كانت مشهورة فى الماضى بتجارة الرقيق ، وتشتهر اليوم بالاتجار فى العاج ، والبن ، والتبغ ، والسفرون ، والمنسوجات القطنية ، والقمح والصمغ ، والشحم والعسل .

وهرر من أهم أوساط زراعة البن و إنتاجه فى الحبشة . والبن الهررى جيد جداً ، ولا يفوقه فى الجودة إلا البن اليمنى .

وقد نقل العرب بزور البن اليمنى إلى هرر وزرعوه فى حقولها فجاد ، وأنتج محصولا عظيما . ومن الغريب أن موطن البن الأصلى إقليم كافا ، إحدى المقاطعات الحبشية الجنوبية الغربية ، وقد كشفه العرب فنقلوه إلى اليمن ، ومنها نقل إلى البرازيل وجهات العالم الأخرى ، التى يزرع فيها البن الآن ، ومنها هرر .

وفى كافا غابات واسعة من البن ، تنمو هناك من غير أن يزرعها زارع ، أو يعنى بها معتن ؛ ولذلك يسقط من ثمرها آلاف الأطنان على الأرض يختلط بأديمها . و يستغل الأهلون بعض أطراف هذه الغابات الواسعة؛ و يصدرون ما يجنون إلى أسواق مصر والسودان .

تعقيب

اليوم (١٩٤٧/٢/١١) هو يوم أغر محجل ، قد كمل الكتاب فى صورة نحمد الله على توفيقنا فيها ، ونشكر لأصحاب الفضل وهم كثر فى تهذيب ألوانها وتبييج حواشيها فلقد أوحت بفكرتها فتاة حبشية سمراء ، ولكنها وسيمة الطلعة تنم أسارير وجهها عن كرم عنصرها ، وشرف محتدها ، وقعت فى أسر القلاشة ولما تبلغ من العمر ثلاثة عشرة فأذاقوها صنوف العذاب وألوان النكال مالا يخطر بقلب بشر، ثم تلقفتها أيدى النخاسة ، وتناولتها البيوت والأسواق حتى انتهت بها خاتمة المطاف إلى دار أبى بعد أن كف بصرها ، فعاشت فى ماضيها أكثر من حاضرها ، فعاودتها ذكراه قوية واضحة وقصت قصصه بينا مؤثراً ، وكنت إذ ذاك صبياً بين الأمر والضرب ، فانطبع فى ذاكرتى .

وكر الزمن . وحملنى طلب العلم فى سنة ١٩٢٥ إلى انجلترا : ودفعنى الولع باقتناء الكتب إلى أكبر دار تبيع الكتب القديمة فى لندن . ، فعثرت فيها على كتاب عن القلاشة فذكرت قصة الحبشية الحسناء ، فقرأته بشغف ، فوجدته مصدقا لما قصته علينا، ولم أكد أفرغ من مطالعة هذا الكتاب حتى تولدت عندى الرغبة فى الاطلاع على كل كتاب يمت موضوعه إلى الحبشة بصلة قريبة أو بعيدة، ووجدت ضالتى فى دار الكتب البريطانية . . . .

وكر الزمن : . . . . وفى سنة ١٩٤٠ كنت ناظراً لمدرسة الزقازيق الثانوية ، ونحونا نحواً جديداً فى موضوعات مجلة المدرسة من شأنه أن يحفز التلاميذ والمدرسين إلى دراسة إقليمهم ، وتضافروا فى إخراج كتاب الشرقية ؛ ماضيها وحاضرها ومستقبلها، وكان فتحاً مبينا ، استمرأه الذين ساهموا فى تأليف الكتاب ، وأجمعوا أمرهم على إصدار كتب عن الشعوب المختلفة .

واخترت أنا الكتابة فى الحبشة ، ورجعت إلى مذكراتى ، فألفت بينها ، ولكن وزارة المعارف لم تمهلنا حتى نكمل ما بدأنا ، فحملت مذكراتى معى إلى مصر ، وتناولتها بعد ذلك بالإضافة ، والتنسيق والصقل حتى تكونت لجنة البيان العربى وكنت من أعضائها ، فأقرت طبعها تحت عنوان « الحبشة » فخرج فى ثوب قشيب لم ينسج على منواله .

فإلى جميع المؤلفين والرحالين والرواد الذين نقلت عنهم ، و إلى أصدقائى الذين استعنت بهم فى تصحيح بعض هناته أكرر شكرى ، راجياً أن يجزيهم الله عنا خير الجزاء ، وينفع به أبناء وادى النيل فى ظل مليكنا المفدى « فاروق الأول » حفظه الله وأدام ملكه وعزه ، فإن فى عزه عز الوطن ؟

المؤلف